مَسَاوِئ الحجبَة

قال ثمامة[1]: جَلَس المأمونُ يومًا وقد حَضَر الناس، فأمَرَ عليَّ بن صالح بإدخال إسماعيل بن موسى فغَلِط وأدخل إسماعيل بن جعفر، وكان المأمون من أشدّ الناس له[2] بغضًا، فرفع يده إلى السماء فقال: اللهم أبدِلنى بعلى بن صالح مطِيعًا ناصحًا، فإنّه بصداقته لهذا آثرَ هواه على هَوایَ.

فلمّا دنا قبّل يده فقال: هات حوائجَك، فقال: ضَيعتى بالفتنة قُهِرتُها وغُصبْتُ عليها. فأمر بردّها عليه، ثم قال: اذكر حاجتَك، فقال: دَيْنٌ كثيرٌ قد لحِقَنى فى جفوة أمير المؤمنين إيّاى، فأمر بقضاء دَيْنه. وقال: ما حاجتك؟ قال: يأذن لى أميرُ المؤمنين فى الحجّ، قال: قد أذنّا لك ما حاجتك؟ قال: يأذن لى أميرُ المؤمنين فى الحجّ، قال: قد أذنّا لك وحاجَتك[3] أيضًا؟ قال: وقف أبى كان فى يدى، فأخرِج عنّى قال: يردّ[4] عليك إن رَضِىَ ورثهُ أبيك[4].

ثم قال: الذى أمكنَنَا فى أمرك قد جُدْنا به، ووقفُ أبيك إلى ورثَتِه. ثم قال لعلىّ بن صالح: يا عبدَ الله، مالى ولكَ، متى رأيتنى أنشَطُ لإسماعيل بن جعفر، وهو صاحبى بالأمس بالبصْرة! قال: يا أمير المؤمنين، ذهبَ عنى إسماعيل بنُ موسى، قال: ذهب عنك ما كان يجب عليك حفظُه، وحفِظتَ ما كان يجب ألاّ تحفَظَه، فأمّا إذا أخطأتَ فلا تُعْلِم إسماعيلَ بن جعفر القصّة.

فظ‍ن أنه عَنَى إسماعيل بن موسى، فأخبر إسماعيل بن جعفر حَرْفًا حرفًا، فأذاعها إسماعيل وبلغ المأمون فقال: الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاقَ التى احتمل عليها علىّ بن صالح، وأبا عمران الطُّوسىّ، وحُميد بن عبد الحميد، ومنصور بن النعمان.

* * *

وحدّثنا مسعودُ بنُ بشر عن ابن داحة[5] قال: خرج إلينا يعقوب بن داود من عند المهدىّ، ونحن على بابه، فقال: ما صَدْرُ هذا البيت:

* ومُحترَسٍ من مِثْلِه وهو حارسُ *

فإنّ أمير المؤمنين سأل عنه. فلم يكن عند أحد منهم جواب. فقلت أنا أخبرك، قال البردخت الشاعر – والبردخت[6] الفارغ، بالفارسية:

---

(١) هو ثمامة بن أشرس: أحد كبار المعتزلة؛ وكان له اتصال بالرشيد؛ ثم بالمأمون من بعده؛ وأراد أن يستوزره فاستعفاه. وله نوادر وأخبار. تاريخ بغداد ٧: ١٤٥.

(٢) ل: «عليه».

(٣) ل: «حاجتك»، بدون «ما».

(٤ – ٤) ل: «يرد عليه إن رضى ورثة أبيه».

(٥) ط: «داجة» تصحيف.

(٦) واسمه على بن خالد، وانظر معجمالشعراء ١٣١، ١٤٣.

أقِلِّى عليك اللوْمَ يا أمَّ مالكٍ ... وذُمّى زمانًا ساد فيه الفَلافِسُ
كساعٍ إلى السلطانِ ليس بناصحٍ ... ومُحترِسٍ من مثلِه وهو حارِسُ
[الطويل]

الفلافسُ من بنى نَهْشل بن دارِم، كوفى، وكان على شُرْطة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومىّ.

وقال الأشهب[١] بن رُمَيْلة النَّهشَلى:

يا حارِ يابْنَ أبى ربيعة إنّه ... يَزنى[٢] إذا اختَلطَ الظلامُ ويشرَبُ
جَعَلَ الفلافِسُ حاجبين لبابِهِ ... سبحانَ من جعل الفلافس يُحْجَبُ!
[الكامل]

فدعا به الحارث، وقال: قد علمتُ أنّه كذَب عليك، ولكن لا حاجة لى فيك، فاخرج عنّى.

وقال الشاعر[٣] فى مثله:

سأترُكُ هذا البابَ ما دام إذنُهُ ... على ما أرَى حتى تلينَ قليلًا
إذا لم نجد للإذنِ عندكَ موضعًا ... وجدْنا إلى ترك المجىءِ سبيلا

وقال آخر:

سأترُكُ بابًا أنت تملك إذْنَهُ ... وإن كنتُ أعمى عن جميع المسالِك[٤]
فلو كنتَ بوابَ الجنان تركتُها ... وحوّلتُ رِجلى مُسرعًا نحو مالِكِ
[الطويل]

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:

لئن عُدْتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ ... سأصرف وجهى حيث تُبغَى المكارمُ[٥]
متى يَنْجَحُ الغادى لديك بحَاجَةٍ ... ونصفُكَ محجوبٌ ونصفُكَ نائمُ!

وكتب رجل إلى عبد الله بن طاهر[٦]:

إذا كان الجوادُ له حجابٌ ... فما فضلُ الجوادِ على البخيل!
[الوافر]

---

(١) ورد الاسم فى الأصول مصحفًا، وانظر اللآلى ٣٤.
(٢) ك: «يرنو».
(٣) العقد، ونسبها إلى أبى تمام ونسبها صاحب محاضرات الأدباء ١:١٠٢ إلى محمد بن عمران.
(٤) المستطرف ١: ٩٣ من غير نسبة.
(٥) العقد ١: ٨٥، ٨٦، وذكر أنه قالها فى بعض الهاشميين.
(٦) العقد ١: ٨٦، وفيه: «وقف رجل بباب أبى دلف».

فأجابه[١]:

أتيتك زائرًا لقضاء حقٍّ   فحالَ السِّتر دُونك والحجابُ
ولست بساقطٍ فى قِدْرِ قَوْمٍ   وإن كَرهوا كما يقع الذُبابُ
[الوافر]

وقال آخر:

وأحضُرُ باب إبراهيمَ جَهْلاً   بما فيه، وأرْشُو الحاجِبَيْنْ
فأخرج إن خرجتُ بغير شىءٍ   وأدخلُ إن دخلْتُ بِدِرهمَيْنْ
[الوافر]

وقال آخر:

يَدُلُّ على أنّه كاتبٌ   سَوادٌ بأظفارِهِ رَاتبُ
فإن كان هذا دليلًا لهُ   فإسكافُنا كاتبٌ حاسِبُ
حِجابٌ شديدٌ لأبوابهِ   وليس لبابِ استهِ حاجبُ
[المتقارب]

وقال آخر:

لَقَلْع ضِرْسٍ وضَنْكُ حَبْسٍ   ونزعُ نفسٍ وردُّ أمسِ
وأكلُ كفٍّ وضِيقُ خُفٍّ   وفَقْدُ إلفٍ وإلْفُ فَلْسِ
وَقَوْدُ قِرْدٍ ونسجُ بُرْدٍ   وَدَبْغُ جِلْدٍ بغير شَمْسِ
وشُرْبُ سُمٍّ وقَتلُ عمٍّ   وكلُّ غمٍّ ويومُ نحسِ
ونَفْخُ نارٍ وحَمْلُ عارٍ   وبَيْعُ جارٍ بُربعِ فَلْسِ
أيسرُ من وقفةٍ بِبابٍ   يَلقاكَ بَوَّابُه بعَبْسِ
[المتقارب]

وقال أيضًا:

لما رأيتُك ذاهبًا   ورأيتَنى أجْفَى ببابِكْ
عدَّيتُ رأسَ مَطيَّتى[٢]   وحَجَبْتُ نفسى عن حجابك
[مجزوء الكامل]

وقال آخر:

لئن كان التشرُّف فى الحجابِ   لقد أصبحتَ فى الشرفِ اللُّبابِ
لقد عاتَبْتُ نفسى فى وُقوفى   فقلتُ لها: وقَفْتِ بأىِّ باب!
بِبابٍ تُسلَبُ الموتى عَليهِ   ويُسْتَلبُ العُراقُ من الكلابِ[٣]
[الوافر]

---

(١) فى العقد: «فأجابه أبو دلف». (٢) ك: «عذبت». (٣) العراق: العظم أكل لحمه.

منصور بن باذان:

أَمَا وَزَمْرِ ابن شَيْبَهْ ... وقُبْحِ لِحيةِ عُقْبَهْ
كأنما شَعْرُ قِرْدٍ ... مُاصَّقٌ حَوْلَ ذَنْبَهْ[1]
ووَجْهُهُ حينَ يَبْدُو ... كَقُبْحِ أوّلِ شَرْبَهْ
لئن أطَلْتَ حِجابى ... ما أنْتَ إلَّا ابنُ قَحْبَهْ
وكيْفَ تبنى المَعَالى ... يا نجْل كلب لِكَلْبَهْ!
وهَلْ يَكونُ كريمًا ... يا قَوْمِ حَمَّالُ قِرْبَهْ

[المجتث]

وله أيضًا:

ياذا الذى قَصَّرَ فى مجْدِهِ ... وزَادَ فى عِدّة حُجّابِهِ
أقسْمْتُ لا أقرب بابَ امرئٍ ... يحجُبنى البواب عن بابه
فأدْخَلَ الله رؤيس امرئٍ ... يحجُبُ مِثلى فى اسْت بوَّابه

[السريع]

* * *

ولأبى عبد الله مُرَيْقة فى علّى بن أحمد المعروف بابن الحوارىّ، شاعر، وكان حجَبه فتعرّض له وقد ركب، فقال:

أَسَلُ الذى صَرفَ الأعِنّة ... بالمواكب نحوَ بابكْ
وأراكَ نَفْسَك دائمًا ... ما لَمْ يكن لك فى حسابك
وأذَلَّ مَوْقِفى العَزيزَ ... علىّ فى أقصى رجائكْ
ألَّا يُطِيلَ تجرّعى ... غُصَصُ المنّيةِ من حِجابك

[مجزوء الكامل]

---

(١) الذنبة، بالتحريك: الذئب، وسكن للضرورة.

محاسِن الولايات

قال إبراهيم بن السندىّ: بعث إلىّ المأمونُ فأتيتُه، فقال: يا إبراهيم، إنّى أريدك لأمر جليل، والله ما شاورتُ فيه أحدًا، ولا أشارَ بك أحدٌ؛ فاتّق الله ولا تفضحنى. فقلتُ: يا سيدى، لو كنت شرَّ خَلْقِ الله ما تركتُ موضع قادح[1]، فكيف ونيّتى فى طاعة أمير المؤمنين نيّة العبد الذّليل لمولاه! قال: قد رأيتُ أن أولّيَك خَبرَ ما وراءَ باب دارى، فانظر أن تعمل بما يجب[2] عليك لله جلّ وعزّ ولى، ولا تراقبْ أحدًا، فقلتُ: يا سيّدى، فإنى أستعينُ بالله عزَّ وجلَّ على مَرْضاته ومرَضاتك.

فبعثتُ أصحاب الأخبار فى الأرباع ببغداد، فرفع إلىَّ[3] بعضهم أنّ صاحب ربعِ الحوض أخذ امرأةً مسلمةً مع رجل نَصرانىّ من تجار الكَرْخ، فافتدَى نفسه بألفِ دينار، فرفعت إليه ذلك، فدعا عبدالله بن طاهر؛ فقال له: انظر فى هذا الذى رفعه[4] صاحبُ الخبر، فقرأه، وقال: رفع يا أمير المؤمني الباطل والزور؛ وأغراه بى، فعمِل[5] قولُه فىَّ، وملأ قلبه.

فبعث إلىَّ وقال: يا إبراهيم، ترفَعُ إلىّ الكذب، وتحملُنى على عمّالى! فكتبتُ رقْعةً دفعتُها إلى فتح الخادم ليوصِلَها إليه، قلت فيها: إنما يحضر الأخبار فى الأرباع المرأة والطِّفل، وابن السبيل، وغير ذلك. ولو كانت الأخبار لا تُرْفع إلَّا بشهودٍ عدول ما صحّ خبر ولا كتب به، ولكنّ مَجْرى الأخبار أن يُحضرها قومٌ على غير تواطؤ، فإن أمرنى أمير المؤمنين ألَّا أكتبَ إليه بخبر إلَّا بعدول وبُرهان فعلت ذلك، وعلى هذا فلا يرتفع فى السّنة خبرٌ واحد.

فلما قرأ الرقعة فكّر فيها ليلته، وجاءَنى رسولُه مع طلوع الشمس، فأتيته من باب الحمّام، فلما رآنى قال: اطمئنّ، وقام فصلّى ركعتين أطال فيهما، ثم سلَّم والتفتَ إلىّ وليس فى المجلس غيرى، فقال: يا إبراهيم، إنما قمتُ للصلاة ليَسكُنَ بَهَرك، ويقوى[6] مَتْنك، ويُفرخ[7] رَوْعك، فتمكَّنْ فى قعودك - وكنت قاعدًا على ركْبتى - فقلت: لا أضع قدرَ الخلافة يا سيِّدى، ولا أجلس إلَّا جلوس العبد بين يدى مولاه! ثم قام فصلّى ركعتين دون الأوليين ثم قال: هذه رقعتُك تحت رأسى قد قرأتها أربع مرَّات، وقد صدقتَ فيما كتبتَ به، ولكنّى امرؤٌ أُدارى عُمَّالى مداراة الخائف، وبالله ما أجد إلى أن أحملَهم على المحجَّة البيضاء سبيلا، فاعمل على حَسَب ذلك ولِنْ لهم تَسْلَمْ منهم، وفى حفظ الله إذا شئت.

---

(١) ل: «فادح».
(٢) ك: «يحق».
(٣) ك: «رفع لى».
(٤) ك: «رفعها إلى».
(٥) ك: «ففعل».
(٦) ل: «وتقوى متنك».
(٧) ط: «ويفرج».

فانصرفتُ، فدعوتُ أصحاب الأخبار، فتقدّمْتُ إليهم فى مداراة القوم والرِّفْق بهم والّلين لهم.

* * *

وعن إسحاق بن أيوبَ بن جعفر بن سليمان، قال: دخل محمدُ بنُ واضحٍ دارَ المأمون، وخلْفه أكثرُ من خمسمائة راكب كلّهم راغبٌ إليه، وراهبٌ منه، وهو إذ ذاك يَلِى أعمالاً من أعمال السَّواد. فدعا به المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، اعْفِنى من عَمَل كذا وكذا؛ فإنّه لا قوّة لى عليه. فقال: قد أعفيتُك واستعفَى من عمل آخر، وهو يَظُنّ أنه لا يُعفيه، فأعفاه حتى خرج من كلّ عملٍ فى يده فى أقلّ من ساعة؛ وهو قائم على رِجلِه[1]، فخرج وما فى يده شىء من عمله، فقال المأمون لسالم الحوائجى: إذا خرج فانظر إلى موكبه، واحْصِ من معه - وكان المأمون قد رآه من مستشرَف له حين أقبل - فخرج سالم وقد استفاض الخبر بعَزْله عن عمله، فنظر فإذا هو لا يتبَعُه [أحد][2] إلّا غلام له بغاشية، فرجع إلى المأمون فأخبره، فقال: ويلَهُم! لو تجمّلوا له رَيْثما يرجع إلى بيته كما خرج منه! ثم تمثّل فيهم:

ومَنْ يَجْعَل المعروفَ فى غَير أهْلِهِ ... يُلَاقى الّذى لاقى مُجيرُ أمِّ عامِرِ

ثم قال: صدق رسولُ الله وكان للصِّدق أهلًا حين قال: «لا تنفع الصَّنيعة إلّا عند ذى حَسَب أو دِين».

* * *

وذكروا أنّه كان سبب عزل الحجّاج عن الحجاز[3]، أنّه وَفَدَ وفدٌ منهم - فيهم عيسى بنُ طلحةَ بن عبيد الله - على عبد الملك بن مروان، فأثنوا على الحجّاج وعيسى ساكتٌ، فلمّا قاموا ثبت عيسى حَتّى خلا له وجهُ عبد الملك، فقام وجلس بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ أنا؟ قال: عيسى بنُ طلحة بن عبيد الله. قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان. قال: أفجهلتنا أو تغيّرتَ بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: ولّيْتَ علينا الحجّاج يسير فينا بالباطل، ويَحْمِلنا على أن نُثنى عليه بغير الحقّ[4]، والله لئن أعدتَه علينا لنعصِينّك، فإن قاتلتنا وغلبتَنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا، ولئن قوينا عليك لنَغْصِبَنّك مُلْكَك.

قال: فانصرف والْزَمْ بيتَك، ولا تذكرنّ من هذا شيئًا.

قال: فقدم إلى منزله، وأصبح الحجّاجُ غاديًا على الوفد فى منازلهم يجزيهم الخير، ثم أتى[5] عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خَلْوَتِك بأمير المؤمنين خيرًا! فقد أبدَلَنى[6] بكم خيرًا لى منكم، وأبدلكم بى غيرى، وولّانى العراق[7].

* * *

(١) ك: «قدميه».
(٢) من ك.
(٣) المحاسن والأضداد: «المدينة».
(٤) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ك ل: «بالحق».
(٥) ك: «وأتى».
(٦) ك: «بدلنى».
(٧) الخبر فى المحاسن والأضداد ٦٣، ٦٤.

وعن الوضّاحيّ، عن مَعمَر بن وهيب، قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهلُ العراق من الحجّاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أيَّ هذَين شئتم؟ يعنى أخاه محمد بن مروان، أو ابنه عبد الله، مكان الحجّاج.

فكتب إليه الحجّاج: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق استعفوْا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفّان، فأعفاهم منه، فساروا إليه من قابلٍ فقتلوه. فقال عبد الملك: صدق ورَبّ الكعبة! وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له[١].

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٦٤.

مَسَاوِئ الوِلايات

قال: كتب عبد الصَّمد بنُ المعذَّل إلى صديق له وَلِىَ النَّفَّاطات فأظهر تيهًا:

لعَمْرى لقد أظهَرْتَ تيهًا كـأنما ... تولَّيْتَ للفضْل بن مَرْوان مِنبرا[1]
وما كنْتُ أخْشى لو وَليتَ مكَانَهُ ... عَـلَىّ أبـا العبـاس أن تتغيَّـرا
بحفظِ عيونِ النّفطِ أحدثْتَ نخوةً ... فكيفَ به لو كانَ مِسكًا وعنبرًا!
دَعِ الكِـبْرَ واستبق التواضُـع إنَّه ... قبيـحٌ بوَالى النَّفط أنْ يتكبـرا[2]

[الطويل]

قال: وسئل عمّار بن ياسر عن الولايات؟ فقال: هى حُلوة الرَّضاع، مُرَّة الفِطام.

ولابن المعتزّ فى مثله:

كَـمْ تـائـةٍ بـولايـةٍ ... وبعـزْلـه يَعْـدُو البـريـدُ[3]
سُـكْـرُ الـولايـةِ طيّـبٌ ... وخُمـارهـا صَفْـعٌ شَـدِيـدُ[4]

[مجزوء الكامل]

ولغيره:

لا تجـزَعَنَّ فكـلُّ وَالٍ يُعـزَلُ ... وكما عُزِلْتَ فَعن قَريبٍ يُعزَلُ[5]
إنَّ الـولَايَةَ لا تـدُومُ لـواحـدٍ ... إنْ كُنْتَ تنكِـرُه فـأيْنَ الأوّلُ!
وكـذا الزمـانُ بما يسـرّكَ تارةً ... وبمـا يَسُـوءُكَ مـرَّةً يَتَـنَقَّـلُ

[الكامل]

---

(١) المحاسن والأضداد ٦٤: «عكبرا».
(٢) المحاسن والأضداد «يتغيرا».
(٣) المحاسن والأضداد ٦٥.
(٤) المحاسن والأضداد «صعب».
(٥) المحاسن والأضداد ٦٥. والرواية هناك «يقتل».

محاسن بُعْد الهمّة

قال: حدّثنا أحمد بن إسحاق التُّسْتَرِيُّ قال: دخل أحمد بن أبي دُؤاد على الواثق، فقال له الواثق بالله: يا أبا عبد الله، إنّي حَنِثْتُ في يمين؛ فما كفّارتُها؟ فقال: مائة ألف دينار. فقال ابن الزّيات: والله ما سمعْنا بهذا في الكفّارات، إنما قال الله جلّ وعزّ - وتلا الآية في كفّارة الأيمان[1] - فقال: تلك كَفّارةُ مِثله في بُعد همّته وجلالة قدره، أو مِثل آبائه، إنّما تكون كفّارة اليمين على قدر جلالة الله من قَلْب الحالِف بها، ولا نعلم أحدًا، اللّهُ جلّ وعزّ في قلبه أجَلّ من أمير المؤمنين. فقال الواثق: تُحمَل إلى أبي عبد الله يتصدّق بها[2].

* * *

قال: ودعا يحيى بنُ خالد البرمكيّ ابنه إبراهيمَ يومًا - وكان يسمّى دينارَ بنى بَرْمَك لجماله وحسنه - ودعا بمؤدِّبه وبمن كان ضُمَّ إليه من كتّابه وأحبابه[3]، فقال: ما حال ابني هذا؟ قالوا: قد بلَغ من الأدب كذا وكذا، ونظر في كذا وكذا. قال: ليس عن هذا سألتُ، قالوا: قد اتّخذنا له من الضّياع كذا، وغلّته كذا، قال: ولا عن هذا سألتُ، إنما سألتُ عن بُعْد همّته، وهل اتخذتُمْ له في أعْناق الرجال مِنَنًا، وحبّبْتُموه إلى الناس؟ قالوا: لا. قال: فبئس العُشراء أنتم والأصحاب! هو والله إلى هذا أحوَجُ منه إلى ما قلْتُم ثم أمر بحَمْل خمسمائة ألف درهم إليه، ففُرّقتْ على قوم لا يُدرَى من هُمْ.

* * *

قال: وقال المأمون لولَدِه؛ وعنده عمرو بن مَسْعَدة ويحيى بن أكثم: اعتبروا في عُلُوّ الهمة بمَنْ تَرَوْن مِن وزرائي وخاصّتي، إنّهم والله ما بلغوا مَراتِبَهُم عندي إلّا بأنفسهم، إنّه من تَبَع منكم صغارَ الأمور تبعَهُ التّصغير والتحقير، وكان قليلُ ما يُفتقد من كبارها أكثرَ من كثير ما يُستدرَك من الصِّغار، فترفّعُوا عن دناءة الهمّة، وتفرّغوا لجلائل الأمور والتدبير، واستكفُّوا الثّقات، وكونوا مِثلَ كِرام السِّباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش، بل بجليلها وكبارها. واعلموا أنّ أقدامَكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدَكم لا يقدّمكم، ولا يُغْني الولدُ عنكم شيئًا ما لم تعطوهُ حقّه، وأنشده[4]:

نحنُ الّذين إذا تخمَّطَ عُصبَةٌ ... من مَعْشر كنّا لها أنكالا[5]

---

(١) هو قوله تعالى في سورة المائدة من الآية ٨٩: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إطعامُ عَشَرة مَساكِينَ من أوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أهْلِيكُمْ أوْ كِسْوَتُهُمْ أو تَحْرِيرُ رقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فصِيامُ ثَلاثَةِ أيّامٍ ذَلِك كَفّارة أيمانِكُمْ إذا حَلَفْتُم﴾.

(٢) كذا في ك، وفي ل: «ليصدق».

(٣) ط: «أجابه».

(٤) ك: «وأنشد في ذلك».

(٥) تخمط: تكبر.

ونرى القُرُومَ مخافَةً لقُرُومنا ... قبلَ اللّقاءِ تُقَطِّرُ الأبوالا
نردُ المنيّةَ لا نَخافُ وُرُودَها ... تحتَ العجَاجةِ والعُيونُ تَلَالَا
نُعطى الجزيلَ فلا نمنُّ عطاءَنَا[1] ... قبل السؤال ونَحمل الأثقالَا
وإذا البلادُ على الأنام تزلْزَلتْ ... كنّا لزلزلةِ البلادِ جبَالا
[الكامل]

ولبعضهم فى أبى دُلف:

لهُ هِمَمٌ لا منتهى لِكبارها ... وهمّتُهُ الصغرى أجلُّ من الدهر[2]
له راحةٌ لو أنّ معشارَ جُودها ... على البرِّ كان البرُّ أندى من البحْر
ولو أنّ خلْقَ الله فى مَسْكِ فارسٍ ... فبارَزهُ كان الخلقُ من العُمر[3]
أبا دُلفٍ بُوركتَ فى كلّ وجهةٍ ... كما بُوركتْ فى شهرها ليلةُ القدْر
[الطويل]

ولغيره:

لا تهدمَنْ بُنيان قومٍ وجدْتهمْ ... بَنوْا لك بُنْيانًا وكُنْ أنْت بانيا
وإنْ زهِدَ الأقْوامُ فى طلب العُلا ... فسامَ بكفّيْك النّدى والمعاليا
[الطويل]

عبد الله بن ظاهر:

فتًى خصّه الله بالمكْرُمات ... فمازج منهُ الحيا والكرمُ
إذا همّةٌ قصَّرت عن يدٍ ... تناول بالمجد أعْلَى الهِمَمْ
ولا ينكُتُ الأرض عند السؤال ... ليَثْنَى زُوّارهُ عَنْ نَعَمْ
بدا حين أثْرى بإخوانه ... فقلَّل عنهم شباةَ العدمْ
وذكّرهُ الحزْمُ غِبَّ الأمور ... فبادر قبل انتقال النِّعمْ
[المتقارب]

* * *

قال: وحدّثنا بعضُ أهل ذِى الرِّياستين[4]. قال: كان ذو الرياسَتيْن يبعث بى وبأحداثٍ مِنْ أهل بيته إلى شيخٍ بخُراسان، ويقول: تعلّموا منه الحكمة، فكنا نأتيه ونستفيد منه الآداب[5]، فلمّا كان بعد ذلك قال لنا: أنتم أدباء، وقد تعلّمتم الحكمة، ولكم نعمة، فهل فيكم عاشق[6]؟ فاستحْيَيْنا من قوله وسكتنا، فقال: اعشقوا فإن العِشْق يُطلق لسانَ البَليد، ويُسخّى البخيل، ويُشجّع الجبان،

---

(١) ك: «فلا يمن عطاؤنا».
(٢) الكامل ٣: ١٢٨، ونسبه لبكر بن النطاح.
(٣) المسك: الجلد.
(٤) ل: «بيت الرياستين».
(٥) ك: «الأدب».
(٦) ك: «من عشق».

ويَبْعث على التلطّف وإظهارِ المروءة[١] فى المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك، وانظروا أن تعشَقُوا أهل البُيوتات والشرف.

قال: فخرجْنا من عنده، وصرنا إلى ذى الرياسَتين، فسألْنا عمّا أفادنا، فَهِبْناه أن نُخْبرَه، فقال: تكلّموا، فقلنا: إنه أمَرنا بكذا، وكذا؛ فقال: صدَقَ وبرَّ، أتعلمون من أين قال لكم ذلك؟ قلنا: يخبرُنَا به الوزير، فقال[٢]: كان لبهرامِ جُور ابنٌ قد رَشحه للمُلك مِنْ بعده، واعتمد عليه فى حياته، وكان خامِلَ المروءَة، ساقِطَ الهمّة، فضمَّ إليه عِدّةً من المؤدِّبين والحكماء والعلماء، ومن يُعلِّم الفُروسيّة، فبينا بُهرام فى مجلسه إذ دخل عليه بعضُ أولئك المؤدِّبين المضمومين إلى ابنه، فسأله عن خبر ابنه، وأين بلغ من الحكمة والأدب؟ فقال: أيّها المِلكُ، قد كنتُ أرجو أن يتوجّه أو يَعى بعضَ ما ألقيته وألقيه إليه؛ حتى حَدَث من أمره ما آيَسَنى منه. قال: وما هو؟ قال: بَصُر بابنة فلان المرزبان فَهوِيَها، فهو الآن يهذِى بها ليلَه ونهارَه، فقال: الآن رجوتُ فلاحَه، اذهبْ فشجّعه براسلة المرأة وخوِّفه بى. فذهب المؤدِّب، فانتهى إلى ما أمرَهَ به وبعث بهرام إلى أبى الجارية ودعاه فقال: إنّى مزوِّج ابنى ابنتَك، فأْتِها ومُرْها أن تراسل ابنى وتطمعه فى نفسها، فإذا استحكَم طَمَعُهُ فيها ورجا الالتقاء تجنَّتْ عليه، وقالت: إنى لا أصْلُح إلّا لِملِك عظيم القدْرِ، بعيد الهمّة، حسَن المودَّة، أديب النفس، شجاع البطش، ولَسْتَ كذلك، ولا هناك[٣]؛ ثم عَرِّفْنى الكائن منك فى ذلك.

فمضى المرزُبان إلى ابنته، فأعلمها بذلك وبما قاله له الملك، فراسَلت الفتى وأطْمَعَتْه، ثم قالت له ما أمَرَها به أبوها، فلمّا سمع ذلك أَنِف أنفًا شديدًا، وتقاصرتْ إليه نفسُه، فأقبل على تعلُّم الأدب والحكمة والفروسيّة حتى صار رأسًا فى ذلك، فلمّا بلغ الغاية التى لا بعدها، رفع قصّته إلى أبيه يشكو تخلُّف حاله وقصور يده عما يَشتهيه[٤]، فوقّع له أبوه بإزاحة علّته [فيما سأل][٥] والتَّوسعة عليه، ثم بعث إلى المؤدِّب فدعاه، فقال: قل لابنى يرفع إلىّ قصّته يسألنى إنكاحَهُ [من][٥] ابنة المرْزُبان. فقال له المؤدب ذلك، فكتب قصّة رفعها[٦] إلى الملك يسأله تزويجَها منه، وأن يصلَ جَنَاحَه بذلك، وأنها ممّن تَصلُح لمثله. فأمر المِلكُ بإحضار المرزبان، وسأله أن يزوّج ابنته من ابنه. ففعل، وجهَّزَها الملك بأجلّ ما يكون من الجهاز. وقال لابنه[٧]: إذا أنت خلوت فلا تحدثنّ شيئًا حتى آتيَك.

فلمّا كان ذلك الوقت دخل الملك على ابنه، فقال: يا بُنىَّ؛ إياك وأن تُصغِّر شأن هذه المرأة عندك، فإنّها من أعظم الناس مِنّةً عليك، وإنّ الذى كان من مراسلتها إيّاك، فإنّما كان عن أمرى وبإذنى وتدبيرى فاعرفْ حقَّها وحقَّ أبيها، وأحسن معاشرَتَها، وبرَّها. ثم خرج المِلك وخلا الفتى بأهله.

ثم قال ذو الرياستين: سلُوا الآن الشيخ عن السبب الّذى حمله على ما أمركم به. قال: فسألْناه، فحدّثَنا بحديث ذى الرياستين.

---

(١) ك: «المودة».
(٢) ك: «قال».
(٣) ك: «لا هنالك».
(٤) ل: «يشبهه».
(٥) من ك.
(٦) ك: «ورفعها».
(٧) ل: «له يا بنى».

مَساوئ سقوط الهمّة

قال: وكان القاسم بن الرشيد ساقِطَ الهمّة، دنِىء النفس، وكان المأمون على أن يعهد إليه ويؤكِّد له ما كان الرَّشيد جعله له من ولاية العهد، وكان لايزال يبلُغه عنه ما يكره؛ مرّةً فى نفسه، وأخرى فى حَشَمه، قال: فرُفع إليه فى الخبر يومًا أنه قال لقُوَّام حَمّامِهِ: نوّروا[1] الناس بالمجّان، ففعلوا ذلك، فلم يبق محتاجٌ إلاَّ جاء يتنوّر، فلما علم أنهم كَثُروا أخرَجَ عليهم الأسد من بابٍ كان يدخل منه إلى الحمّام، فخرج الناسُ عُراةً مغمى عليهم، مع ما عليهم من النّورةِ، هاربين من الأَسَد فصاروا إلى شارع قصره. وقد أشرف عليهم وهو يضحك.

فحدَّثنا الحسن بن قريش، قال: دعانى المأمون وقال: يا هذا، مالى ولهذا الفتى! إلى كم أحتمل منه هذا الأذى! قال: فقلت: قوّمْه يا أمير المؤمنين إن رأيت فى ذلك صلاحًا. قال: نعم، فقلت: يا سيدى، إنّه عضوٌ منك، وأنت به وأَوْلَى الناس بتقويمه، قال: فجعل ينهاه ويأبى أن ينتهىَ، فلما كثر هذا مِنْ فعله؛ عزم على خَلْعِه، فكتب إلى هَرْثمة بنِ أعين فى ذلك كتابًا نسخته: «أمّا بعد، فإنّ أميرَ المؤمنين يستوفِق الله جلّ وعزّ فى جميع أموره ويستخيره فيها؛ خاصّها وعامّها، لطيفها وجليلها؛ استخارة من يُوقن أنَّ البركة وخيرة البدء والعاقبة فى قضائه، وما يُلهمه من إرشاد وتسديد رأى وإثبات صواب، وقد رأى أمير المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمُه فيه من أمر القاسم بن الرشيد، فيما كان إليه من ولاية العهد خَلْعَه عن ذلك وصَرْفه عنه، فأظهر ذلك فيمن بحضرتك، وأمُر بالكتاب إلى العمّال فى نواحى عَمِلك وثُغُورك ووُلاة الأمصار، فقد أمِل أمير المؤمنين أن يكون ذلك توفيقًا من الله تبارك اسمه. ورشدًا ألهمه إياه؛ إذْ كان به توفيقُه وعليه معوَّله. وإليه رجوعه فيما يُبرم ويُعِضى، فامتَثِلْ ما حَدَّه لك أميرُ المؤمنين. وأْنْتَهِ إليه، واكتب بما يكون منك فيه إن شاء الله».

* * *

قال: ونظر المأمون يومًا إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم، فابْنُه العباس يتخذ المصانع ويبنى الضِّياع، والمعتصم يتّخذ الرجال، فقال شعرًا:

يبنى الرجالَ وغيرُه يبنى القُرى   شَتّان بين قُرًى وبينَ رجالِ!
قَلِقٌ بكثرةِ مالِهِ وضياعِهِ   حَتى يُفرِّقَهُ على الأبطالِ
[الكامل]

وأنشد فى مثله:

لما رأيتُك لا تجودُ بنائلٍ   وتَضنُّ بالمعروف ضَنَّ الساقِطِ[2]

(١) النورة: حجر الكلس، ثم غلب على أصناف تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره، ويستعمل لإزالة الشعر.
(٢) ط: «وتظن» تصحيف.

ورأيت همّتَـكَ الّتى تَعلُو بهـا سَوطَ الثريدِ وشَمَّ ريحِ الغائطِ
وإذا تُكلَّفُ حـاجـةً ضيَّعتَهـا بتغـافُلٍ عنهـا كَأنَّـكَ واسِـطى
لاللمكـارم تشـرَئِبُّ بـنهضـةٍ ولدَى المكاره كالحِمار الضـارِط
أَيَّسْتَ نفسى مِن رجائك دَهْرهَا ونقشتُ شِبْهَك صورةً فى حائط
[الكامل]

وقال آخر سامحه الله عزّ وجلّ:

إذا أنت لا تُرْجَى لدَفعِ مُلمّةٍ ولا أنت فى المعروف عندك مَطمع
ولا أنت ذو جاهٍ يعاشُ بجاهِهِ ولا أنتَ يومَ الحشرِ ممن يُشَفَّعُ
فموتُكَ فى الدنيا وعيشُك واحدٌ وعودُ خلالٍ من نـوالك أنفعُ
[الطويل]

ولآخر سامحه الله وعفا عنه:

كلّما قلتُ وِيْكَ للكلب إخسَأ لحـظتْنى عيْنَـاك لحـظةَ تُهْـمةْ
أتَـرانى أظُـنّ أنـك كـلْبٌ أنت عندى من أبعد الناس هِمَّة
[الخفيف]

محاسن كرم الصّحبَة

قال ابن أبي طاهر: حدَّثوني عن عبد الله بن مالك؛ قال: كنتُ أتولى الشُّرْطة للمهدىّ، وكان يَبعث إلىّ فى نُدَماء الهادى ومغنيّه؛ أنْ أضربهم وأحبسهم صيانةً له عنهم، فبعث الهادى يسألنى الرفْقَ بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك وأمضى إلى ما يأمُر به المهدىّ.

فلما ولى الهادى الخلافة أيقنتُ بالتّلَف، فبعث إلىّ يومًا فدخلتُ عليه متكفّنًا متحنّطًا؛ فإذا هو على كرسىٍّ والنِّطع والسَّيف بين يديه، فسلّمت فقال: لا سلّم الله عليك! تذكُرُ يومَ بعثتُ إليك فى أمر الحرّانىّ لَمَّا أمر أمير المؤمنين رضى الله عنه بضربه، فلم تجبنى، [و][1] فى فلان وفى فلان! وجعل يعدّ نُدَمَاءَه - ولم تلتفت إلى قولى! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لى فى استيفاء الحجّة؟ قال: نعم. قلت: نشدتُك الله يا أمير المؤمنين، أيسرُّك أنْ ولّيتنى ما ولّانى أبوك وأمرتنى بأمر فبعث إلىّ بعضُ بنيك بأمر يخالف أمرَك، فاتّبعتُ أمرَه، وعصيتُ أمرَكْ؟ قال: لا. قلت: فكذلك أنا لك، وكذا كنتُ لأبيك وأخيك، فاستدنانى فقبّلتُ يدَه، وأمر بخُلَعٍ فصبّت علىّ؛ وقال: قد ولّيتك ما كنت تتولاه، فامض راشداً.

فخرجتُ من عنده وصرت إلى منزلى مفكّرًا فى أمره وأمرى، وقلت: حدثُ والقوم الّذين عصيتُه فى أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكُتّابُه، فكأنّى بهم حين يَغلِب عليه الشرابُ؛ وقد أزالوه عن رأيه فىّ وحَمَلوه فى أمرى على ما كنت أتخوّفُه!

قال: فإنّى لجالسٌ وبين يدىّ بُنيّةٌ لى والكانون بين يدىّ، ورُقاقٌ أسْطُرُه بكامَخ وأسخّنُه وأطعِمُه الصبية، حتى توهّمت أن الدنيا قد اقتلعت بى وزلزلتْ لوقع حوافر الدوابّ وكثرةِ الضّوضاء؛ فقلت: هاهْ! كان والله ما ظننت، فإذا البابُ قد فُتِح، وإذا الخَدَم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادى على حمارٍ فى وَسَطهم! فلمّا رأيتُهم، وثبتُ عن مجلسى مبادرًا وقبّلتُ يده ورجْله وحافر حماره، فقال: يا أبا عبد الله، إنى فكّرْتُ فى أمرك، فقلت: يسبق إلى قلبك أنّى إذا شربتُ وجاءنى أعداؤك أزالوا ما حَسُنَ من رأيى فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرتُ إلى منزلك لأؤنسك، وأعلمك أنّ السخيمَة قد زالتْ عن قلبى، فهات أطعِمنى ما كنت تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل؛ لتَعْلم أنّى قد تحرّمتُ بطعامك؛ وأنِست بمنزلك؛ فى،زول خوفُك وَوَحْشتك.

فأدنيت إليه ذلك الرقاقَ والسُّكُرَّجَة[2] التى فيها الكامخ، فأكل منها ثم قال: هاتوا الزُّلّة[3] التى زللْتُها لأبى عبد الله من مجلسى،، فأدخل إلىّ أربعمائة بَغْل موقرةً دراهم، فقال: هذه زُلّتُك فاستعن

---

(١) من الطبرى.

(٢) السكرجة: الصفحة: فارسى معرب.

(٣) الزلة: الصنيعة.

بها على أمرك، واحفظ هذه البغال عندك، فعلّى احتاج إليها لبعض أسفارى، [قال: أظلّك الله بخير][١]، وانصرف راجعًا.

فأخبرنى[٢] موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الّذى كان وسط داره، فبنى حوله معالِفَ لتلك البغال، وكان هو يتولّى القيامَ عليها مدّة حياة الهادى[٣].

* * *

وحدّث مَنْ حضر مجلس المأمون؛ وقد أمر بإحضار العبّاس صاحب الشُّرطة ببغداد، وبين يديه رجلٌ مكبّلٌ بالحديد، فلمّا حضر قال: يا عَباس، خُذْ هذا إليكَ واستوثقْ منه ولا يفوتنّك، وبكِّرْه به واحذَرْه كلَّ الحذَر.

قال العباس: فدعوتُ جماعةً حملوه، ولم يقدر يتحرّك، فقلت فى نفسى: مع هذه الوصيّة التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب[٤] أن يكون معى إلّا فى بيتى. ثم سألتُه عن قصّته وحاله، من أين هو؟ فقال: من دِمَشق، فقلت[٥]: جزى الله دِمشق وأهلها خيرًا! فمَن أنت من أهلها؟ قال: لا تَزِيَّدْ أن تسألنى! فقلت له: أتعرف فلانًا؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لى قصّة معه، فقال: ما أنا بمعرِّفك خبره أو تعرِّفنى قصّتك! فقلت[٦]: ويْحك! كنت مع بعض الولاة بها، فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالى أن يُدْلَى فى زِنْبيل من قَصْر الحجّاج، وهرَب هو وجميع أصحابه، وهربتُ فيمن هَرَب، فإنّى لَفِى بعض الطريق إذا جماعة يعْدُون خَلْفى، فما زِلتُ أحاضِرُهم[٧] حتى مررتُ على هذا الرجل الّذى ذكرتُه لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثْنى أغاثك الله! فقال: لا بأس عليك، ادخل الدار، فدخلت، فقالت لى امرأتُهُ: ادخُل الحَجَلة[٨]، فدخَلْتُها وأتت الرجالُ خلفى فما شعرتُ إلّا به وهم معه يقولون: هو والله عندَك! فقال: دونكم الدّار ففتشوها حتى لم يبقَ إلّا البيت الذى كنتُ فيه، فقالوا: ها هنا! فصاحت المرأة وانتهرتْهم فانصرفوا، وخرج الرجلُ فجلس على باب داره ساعةً وأنا قائم فى الحَجَلة خائفًا، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلستُ فلم ألْبَثْ أن دَخَل الرجلُ وقال: لا تَخَف فقد صرتَ إلى الأمن والدّعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله عنى خيرًا! ثم ما زال يعاشرنى أحسن المعاشرة وأجلَها، ولا يَفترُ من القَصْف والأكل والشرْب والفَرَح أربعة أشهر؛ إلى أن سكنت الفتنة وهدأتْ، فقلت له: أتأذَنُ لى فى الخروج لأتعرَّف خبر غلمانى ومنزلى، فعلىّ أن أقف لهم على أثر أو خبر!

---

(١) من الطبرى.

(٢) الطبرى: «فذكرى موسى بن عبد الله.

(٣) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ٥٨٣، ٥٧٤ (طبع أوربا).

(٤) ط: «يجب».

(٥) ط: «فقال».

(٦) ط: «فقال».

(٧) أحاضرهم؛ لعله من الحضر، وهو العدو.

(٨) الحجلة: بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.

فأخذ عليّ المواثيق بالرّجوع إليه، فخرجتُ وطلبتُ غِلمانى، فلم أر لهم أثرًا، فرجعتُ إليه وأعلمتُه الخبر، وهو مع هذا لا يعرفنى، ولا يعرف اسمى، ولا يخاطبنى بغير الكُنْيَة، ثم قال لى: ما تعزِم؟ فقلت: قد عزمْتُ على الشّخوص إلى بغْداد، فإنّ قافلةً تخرُج بعد ثلاثة أيام، وقد تفضّلتَ علىّ هذه المدّة، فأسألك أن تعطينى ما أُنْفِقه فى طريقى وما أَلْبَسُه. فقال: يصنع الله عزّ وجلّ.

ثم قال لغلامٍ له أسود: أنعِل[1] الفرس الفلانىّ؛ وتقدّم إلىّ مَنْ فى منزله بإعداد السفر. فقلت فى نفسى: ما أشكُّ إلاّ أنّه يخرج إلى ضَيْعة له أو ناحية من النواحى، فوقعوا يومَهم ذلك فى تعب وكدّ. فلما كان خروج القافلة جاءنى فى السَّحَر وقال: يا أبا فلان، قُمْ فإن القافلة تخرُج الساعة؛ وأكرَه أن تنفردَ عنها. فقلت فى نفسى: ما أعطانى شيئًا ممّا سألتُه، ثم قمت، فإذا هو وامرأتُه يحملان إلىّ خفاتين[2] مقطوعةً جُدَدًا ورانات وآلة السَّفَر، ثم جاءنى بسيف ومِنطقَة فشدَّهما فى وسطى ثم قدّم البغل، فحمل عليه الصناديق وفوقها مِفرشَين، ودفع إلىّ نسخة بما فى الصناديق وفيها خمسة آلاف درهم، وقدّم إلىّ الفرس الّذى كان أنعَلَه بسَرْجِه ولجامه، وقال لى: اركب وهذا الغلام الأسود يَخدِمك ويَسوسُ دَوابَّك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما فى أمرى. وركب معى فشيَّعنى. وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشّغل بالأسفار واتصالها والتنقّل من مكان إلى مكان.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عز وجلّ بمن تريد مكافأته بلا مئونة عليك، فقلتُ: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل؛ ثم قال لى: ما أثبتُك[3]، فتعرّف إلىّ! وأقبل يذكّرنى بأشياء يتعرف بها إلىّ حتى أثبتّه وعرفته، فما تمالكتُ أن قمت إليه فقبّلتُ رأسَه، وقلتُ له: ما الّذى أصارك إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنةٌ بدمشق مثل الفتنة التى كانت فى أيّامك، فنُسِبَتْ إلىّ، وبعثَ أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وحُملت إليه، وأمرى عنده غليظٌ جدًّا، وهو قاتلى لا محالة، وقد خرجْت من عند أهلى بلا وصيّة، وقد تبعنى من عبيدى مَنْ ينصرف إلى منزلى بخبرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تُنعم وتبعث إليه حتى يحضُر فأتقدّم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلتَ ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة لى!

قال: فقال العبّاس: يصنع الله! ثم قال: علىّ بحدّادِين، فأتوْا بهم، فحلّ قُيُوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجّام فأحضِر، وأخذ من شَعْرِه ثم قال: علىّ بمولاه، فأنفذ فى طلبه مَنْ يحضِره.

قال الرجل: فلّما أن أخذ شعرى أدخلَنى الحمّام فطرح علىّ من ثيابه ما اكتفيتُ به، ثم حضر مولاى وقعد يبكى، فقال العباس، علىّ بفَرسى الفلانىّ والفرسِ الفلانىّ والبغل الفلانىّ، حتى عَدَّ عشرًا. ثم قال: علىّ من الصناديق والكسوة بكذا، ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لى ببَدْرةٍ فيها

(١) أنعل الدابة: ألبس حافرها النعل.

(٢) الخفاتين: جمع خفتان، وهو صديرية تلبس تحت الدرع (فارسى).

(٣) ما أثبتك، أى ما عرفتك حق المعرفة.

عشرة آلاف دِرْهم، وكيسٍ فيه خمسةُ آلاف دينار، وقال لصاحب شُرْطتِه: خذْه واعبرْ به إلى جسر الأنبار.

فقلت له: إن أمرى غليظ، وإن أنت احتججْتَ بأنّ هَرَبْت بَعَثَ أمير المؤمنين فى طلبى كلَّ مَنْ على بابه، فأُرَدّ وأُقتَل، فقال: انجُ بنفسك ودعْنى أدّبرُ أمرى. فقلت: والله لا أبرحُ من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجتَ إلى حضورى حضرتُ، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمرُ على هذا فليكن فى موضع كذا وكذا، فإن سلمتُ فى غداة غدٍ فسبيل المحبّة، وإن قتِلتُ كنت قد وقيتُه بنفسى كما وقانى بنفسه، وأنشُدك الله أن تُذْهب[1] من ماله شيئًا قيمته درهم، وتخلِّصَه حتى تخرجَه من بغداد.

قال الرجل: فأخذنى صاحب الشُّرْطة؛ فصيرنى فى مكان يثق به، وتفرَّغ العباس لنفسه، واغتسل وتحنّط وتكفّن.

قال العباس؛ فلم أفرُغْ من ذلك حتى وافتْنى رسل المأمون فى السَّحر، وقالوا: أمير المؤمنين يقول؛ هاتِ الرجل، فسكت وأتيتُ الدارَ، وإذا أمير المؤمنين جالس؛ عليه ثيابُه أمام فراشه، فقال: الرجلَ! فسكتّ.

فقال ويْحَك! الرجل! فقلت: يا أمير المؤمنين، اسمع منّى، فقال: أعطِى الله عهدًا لئن ذكرتَ أنه هرب لأضربنّ عُنُقَك، فقلت: لا والله ما هَرَب، فاسمع منّى حديثى وحديثَه، ثم أنت أعلم بما تفعله فى أمرنا، قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من حديثى معه كذا وكذا.. وقصصتُ عليه القصّة، وعرّفته أنّى كنتُ أريد مكافأته، فشُغِلْت عن ذلك، حتى إذا كان البارحة عرَفته، وعبَرتُ به جسْرَ الأنبار، وقلت: أنا من سيّدى أمير المؤمنين بين أمرين: إما صَفَح عنّى وإمّا قتَلنى وأكون قد كافيتُه ووَقيتُه بنفسى كما وقانى بنفسه.

فلمّا سمع المأمون الحديثَ قال: ويحك! لا جَزاكَ الله خيرًا عن نفسك وعنّا وعن هذا الفتى الحُرّ! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة بهذا! لِمَ لا عرَّفتنى خبرَه، فكنتُ أكافئه عنك! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّه والله ها هنا قد حلَف أنّه لا يَبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتيجَ حضوره حَضَر، قال: وهذه والله منه أعظمُ من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيِّبْ نفسه، وسكّن روْعَه، وتعبرُ به إلى حتى أتولّى مكافأته عنك.

فصرتُ إليه وقلت: ليسكن رَوْعُك، إنَّ أمير المؤمنين قال كَيْتَ وكَيْتَ، فقال: الحمد لله الذى لا يُحْمَد على السّرّاء والضّرّاء غيرُه. ثم تهيّأ للصلاة فصلّى ركعتين، ثم جئنا.

فلمّا مَثَل بين يدى المأمون أدناه حتى أجلسَه إلى جانبه، وآنسَه وحدّثه حتى حضر الغداء، ثم قال: الطعام، فأكل معه، وخلَع عليه، وعَرَض عليه أعمالَ دِمَشْق، فاستعفاه. ثم قال المأمون: عَلىّ بعَشْرة

(١) ك: «يذهب».

أفراس بسُروجها ولجمها، وعشرة بغال بجميع آلَتِها. وبعشر بِدَر، وبعشرة تخوت، وعشرةِ مماليك بذواتهم وجميع آلتهم. فدفع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه وأوْغَر خراجه، وكتب إلى صاحب البريد أن يُنفِذ كتبه، وصَرَفه إلى بلده.

قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب فى خَريطة يقول لى المأمون: يا عبّاس، هذا كتاب صديقك!.

* * *

وحدّث رجلٌ عن جعفر العطّار قال: بينما يحيى بنُ أكثَم يماشى المأمون فى بستان موسى، والشمس عن يمينه، والمأمون فى الظِّلّ؛ وقد وَضَعَ يَدَه على عاتق يحيى، وهما يتحدّثان[1]، إذا رأى المأمونُ أن يَرجع فى الطريق الذى جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذى قصده، قال ليحيى: إنك جئتَ وعن يسارك الشمس، وقد أخذت منك، فكن أنت الآن فى منصرَفك حيث كنت، وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنَنى أن أقِيَكَ بنفسى من هَوْل المطلع لفعلتُ، فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعةً! فقال: لا والله، لابّد من أن آخذ منها كما أخذتْ مِنك، وتأخذ من الظلّ كما أخذتُ منه[2] فصار المأمون فى موضعه، وصار يحيى فى موضع المأمون[2]، وتماشَيَا وأخذ بيدِه فوضعها على عاتِقه؛ حتى صار إلى المجلس.

* * *

وحدّث رجل من آل أسوار[3] بن ميمون، عن عمّه عبد الله بن أسوار، قال: دخلتُ على يحيى بن خالد البَرْمَكىّ يومًا فقال: أجْلِس - وكنْتُ أحدَ كُتّابه - فقلتُ: ليست معى دَواة، فقال: وَيْحك! فى الأرض صاحب صناعة تفارقُه آلتُه! وأغْلَظَ لى فى حرفٍ علمتُ أنّه أراد به خَطّى، وأرانى بعضَ التّثاقُل فى كتاب ظهر لى به أنه أراد خَطّى على الأدب لا غير، ثم دعا بدَواة، فكتبتُ بين يديه كتابًا منه إلى الفضل ابنه، ورأى منّى بعضَ الضجر فيما كتبتَ، فتوهّم أن ذلك من أجل الكلمة التى كلّمنى بها. فأراد أن يمحو عن قلبى ما توهّمه علىّ، فقال: عليك[4] دَيْن؟ قلت: نعم، قال: كم دَيْنُك؟ قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فوقّع بخطّه إلى الفضل فى الكتاب:

وكُلُّكُم قد نال شَبْعًا لبطنِه ... وَشبْعُ الفَتى لؤم إذا جاع صاحبُهْ

ثم قال: إن عبد الله ذَكَر أنّ عليه دَينًا يُخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم، فإذا نظرتَ فى كتابى هذا، وقبل أن تضَعَه فى يدِك، فأقسمتُ عليك لمّا حملت ذلك إلى منزله من أخَصِّ مال قبلك.

قال: فحملها الفضل إلىّ وما أعظم لها سببًا إلا تلك الكلمة.

* * *

(١) ك: «يتحادثان».

(٢-٢) ك: «فسار المأمون فى الشمس ويحيى فى الظل».

(٣) ك: «سوار».

(٤) ك: «أعليك».

وحدّث إبراهيم بنُ ميمون قال: حدّثنى جبريل بن بختيشُوع قال: اشتريت ضيعةً فنقدتُ بعض الثمن وتعذّر على بعضه، فدخلت على يحيى وعنده ولدُه وأنا أفكرّ، فقال لى: مالى أراك مفكرا! فقلْت: أنا فى خِدْمَتك - وقد اشتريت ضيعةً بسبعمائة ألف درهم، ونقدتُ بعض الثمن، وتعذّر علىّ بعضُه - فدعا بالدَّواة وكتب: يُعطَى جبريل سبعمائة ألف درهم، ثم دَفع الكتابَ إلى وَلده؛ فوقّع فيه كلُّ واحد منهم بثلاثمائة ألف درهم، فقلت: جُعلت فداك! لقد أدّيتُ عامّة الثمن، وإنما بقَى أقلّه، قال: اصرف ذلك فى بعض ما يَنُوبك. ثم صرتُ إلى الرشيد فقال: ما أبطأ بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، كنت عند أبيك وإخْوتِك ففعلوا بى كذا وكذا، قال: فما حالى أنا! ثم دعا بدابّته فركِب إلى يحيى فقال له: يا أبتِ، خبِّرنى جبريلُ بما كان، فما حالى من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، مُر له بما شئت يُحْمَل إليه، فأمر بحمْل مالٍ إلى جبريل.

* * *

وكان إبراهيم بنُ جبريل على شُرطة الفَضل، فَوَجَّههُ إلى كابُل فافتَتَحها، وغَنِم غنائم كثيرة، ثم ولّاه سِجِسْتَانَ، فلمّا انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعةُ آلاف ألف درهم، فلمّا قدِمَ بغداد وبنى داره فى البغويّين، استزار الفضل بنَ يَحيى ليُريَهَ نعمته عليه، وأعد الهدايا والطُّرف، وآنية الذهب والفضّة، والوُصَفَاء والوصائفَ والدوابّ، والقباب والثِّياب، وما تهيّأ لمثله، ووضع الأربعة الآلاف ألف درهم فى ناحية من الدار، فلما تغدى الفضل قدم إليه تلك الهدايا، فأبى أن يَقبل منها شيئًا، وقال: لم آتِك لأسْلُبك، فقال: أيها الأمير، إنّما نعمتُك علىّ. قال: ولك عندنا مزيد. قال: فلم يزل يَطْلُب إليه، فأخذ من جميع ذلك سوطًا سِجْزِيًّا فقال: هذا من آلةِ الفُرْسان، فقال إبراهيم: أيها الأمير، فهذا المال مال الخراج، تأمر بقَبْضه. قال: هو لك، فأعاد عليه القول مرارًا، فقال: مالك بيتٌ يَسعهُ! فوهب له المال بعد أن كان قد صار إليه ألف ألف درهم.

* * *

قال: ودخل قوم من حاشية المنصور وخدمه عليه، فرأى منهم رجلًا عليه سَوَادٌ خلق، فقال له: يا فلان مالى أرى سوادك متقطعًا! أما تقبض رزْقَك! قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن أبى تُوُفّى وترك دينًا، فبعت تركته فى قضاء دَيْنه، وصرفتُ أكثر رزْقى إلى حُرمته وولده من بعده، فقال: أعِد علىّ ما قلْتَ، فأعاده، فقال ما أحسَنَ ما فعلت! أغْدُ عَلَىّ فى غد. فغدا عليه فوجد الربيعَ جالسًا على الكرسىّ، فقال: قد سأل عنك أمير المؤمنين فأدخل. فدخل، فوجده قائمًا يصلّى، فقضى صلاتَه وقال: ألم آمُرْك أن تغدو! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصّرتُ فى الغُدُوّ عند نفسى! قال: خذ ما تحت تلك المُضرّبة وإذا السراج يزهر وسريرٌ صغير فى ناحية المجلس ينام عليه، فرفعتُ المضربة فإذا دنانير، فجعلت أحثُوها فى كمّى، ثم دعوتُ له وخرجت، فَبصُر بصُفْرة دينار فى ضوء السراج، فدعانى، فقال: انظر ما على السرير، فإذا دينارٌ، فأخذتُه فقال: ادْنُ منّى، فدنوتُ منه، فعرّك أذنى تعريكًا شديدًا، وقال: تترك دينارًا وفيه نفقةُ يومك! قال: فأخذت الدينارَ ووَزَنْتُ الدنانير، وإذا هى ألف دينار؛ عددُها تسعمائة وتسعة وتسعون دينارًا فى عافية، وأخذت واحدًا بَعرْك الأذن.

قيل: وقال علقمة بن لبيد[١] لابنه: يا بُنى، إن نازعتْك نفسُك يومًا إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم، فأصحب من إن صحبتَه زانك، وإن تخفَّفت[٢] له صانك، وإذا نزلتْ بك نازلةٌ مانَك، وإن قلت صدَّق قولكَ، وإن صُلْت به شَدَّد صَوْلك. أصحبْ من إذا مَدَدْتَ يدك لفضلٍ مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن بدت منك ثلمةٌ سَدّها. اصحب من لا تأتيك منه البوائقُ، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يُخذلك عند الحقائق.

* * *

وقال بعض الحكماء: إذا رأيت كَلْبًا تَرَك صاحبه وتبعَك فارجُمه بالحجارة، فإنه تاركُك كما تَرَك صاحبه.

وقال آخر: اصحبْ من خوَّلك نفسه، وملّكك خدمته، وتخيَّرك لزمانه، فقد وجب عليك حقّه وذمامُه.

وكان يقال: منْ قَبِل صلَتك فقد باعك مروءته، وأذلّ لقَدْرِك عزّه.

وقال بعضهم: أنا أطوَعُ لك من اليد، وأذلُّ من النَّعْل.

وقال بعضهم: أنا أطوعُ لك من الرداء، وأذلُّ من الحِذَاء.

قيل: وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيات: ما خبرُك مع صاحبك؟ قال: لا يقصِّر فى الإحسان إليّ. قال: يا هذا؟ إن لسان حالك يُكذِّب لسان مقالك[٣].

---

(١) المحاسن والأضداد: «ليث».

(٢) كذا فى المحاسن والأضداد وفى ك: «تحققت»، وفى ل مهمل.

(٣) ل: «قولك»

مَساوئ الصّحبَة

قال: كان يوسفُ بنُ عمر الثّقفيّ يتولّى العِراقين لهشام بن عبد الملك، وكان مذمومًا فى عمله، فحدّثَ المدائنيُّ قال: وزن يوسفُ بن عمَر درهمًا، فنقص حبّةً، فكَتب إلى دُور الضرْب بالعراق، فضرب أهلها مائة سوط[1].

قيل: وخَطَب فى مسجد الكوفة، فتكلّم إنسانٌ مجنون؛ فقال: يا أهلَ الكوفة، ألم أنهكم أن يدخل مجانينكم المسجد! اضربوا عنقه، فضربت عنقه[1].

قال: وقال لهّمام بن يحيى - وكان عامله: يا فاسق، أخْربْتَ «مِهْرَجان قُذق»! قال: إنى لم أكن عليها، أنما كنت على ماه دينار، وتقول: أخربت «مهرجان قذُق» !فلم يزل يوسفُ يعذّبه حتى قتله[1].

قال: وقال لكاتبه: ما حبسك عنّى؟ قال: اشتكيت ضِرْسى. قال: تشتكى ضِرْسَك وتقعُد عن الدِّيوان! ودعا له بالحجّام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه[1].

* * *

وعن المدائنىّ، قال: حدّثنى رضيعٌ كان ليوسف بن عمرَ من بنى عَبْس، قال: كنت لا أحْجَب عنه وعن حُرْمَتِه[2]، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بَخصىٍّ أسود يقال له حديج[3]، فقرَّب إليه واحدةً، فقال لها: أريد الشخوص، أفأخلّفك أم أشخصك معى؟ فقالت: صُحبة الأمير أحب إلىّ، ولكنّى أحسب أن مُقامى وتخلفى أعفى وأخفُّ علىّ. قال: أحببت التخلّف للفُجُور! اضرب يا حُدَيج - فضرَبها حتى أوجَعَها؛ ثم أمره أن يأتيَه بأخرى قد رأتْ ما لقيتْ صاحبتها! فقال لها: إنى أريد الشخوص، أفأخَلّفُك أم أخرجُك؟ قالت: ما أعدِل بصُحْبة الأمير شيئًا، بل يُخرجنى. قال: أحببتِ الجماع؛ ما تُريدين أن يفوتَك! اضرب يا حُدَيج، فضربها حتى أوجعها، ثم أمر بالثالثة أن يأتيه بها وقد رأت ما لقيتْ المتقدمتان. فقال لها: أريد[4] الخروج، أفأخلفك أم أشخصك؟ قالت[4]: الأمير أعرفُ [5]أىُّ الأمرّين أخفّ عليه. قال: اختارى لنفسك، قالت: ما عندى لهذا اختيار، فليختر الأمير. قال: قد فرغتُ أنا الآن من كلّ شىء ومن كلّ عمل، ولم يبق علىّ إلّا أن أختار

(١-١) المحاسن والأضداد ٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «حدمته».

(٣) كذا فى المحاسن والأضداد؛ حديج من أسمائهم وفى ك، ل: «خديج».

(٤-٤) ك: «أتريدين الخروج معى أو أخلفك».

(٥) ك: «أعرف لينظر».

لك؛ أوْجع يا حُديج، فضربها حتى أوْجعها، قال الرجل: وكأنما كان يضربنى من شدّة غَيْظى عليه - فولّت الجارية وتبعها الخادم، فلما بعدتْ قالت: الخيرةُ والله فى فراقكَ، ما تَقرّ والله عينُ أحد يصحبك، فلهم يفهم يوسف كلامها، فقال: ما تقول يا حُديج؟ قال: قالت: كذا وكذا، قال: يا بن الخبيثة؛ مَنْ أمرك أن تخبرنى ! يا غلام، خذ السوط من يده وأوجع به رأسه، فما زال يضربهُ حتى اشتفيت[١].

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٦٦، ٦٧.

محاسن السّخاء

روى عن نافع، قال: لقى يحيى بنُ زكريّاء عليه السلام إبليس، فقال له أخْبِرنى بأحبِّ النّاس إليك، وأبغض النّاس إليك! قال: أحَبّ الناس إلىّ كل مؤمن بَخيل، وأبغضُ الناس إلىّ كلُّ منافِقٍ سخىّ. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنّ السخاء خُلُق الله الأعظم، فأخشى أن يطّلع عليه فى بعض سخائه فيغفرَ له[1].

وقال ﷺ: «السخىُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريبٌ من الجنّة، بعيدٌ من النّار. والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنّة؛ قريبٌ من النار. ولجاهلٌ سخىٌّ أحبُّ إلى الله تعالى من عابدٍ بخيل، وأدوأ[2] الداء البُخْل».

وعن النبى ﷺ قال: «ما أشرقتْ شمسٌ وبجنبتيها[3] مَلَكان يناديان، وإنّهما لُيسمعان[4] الخلائق إلا الثقَلَيْن الجنّ والإنس[3]: اللهم عَجّل لمنفق خَلَفًا، اللّهم عَجِّل لمسكٍ تَلَفًا. ومَلَكان يناديان: يأيّها[5] الناس، هَلُمّوا إلى ربّكم، فإنّ ما قلّ وكَفى، خيرٌ ممّا كثُر وألهى»[6].

وعن الشّعبىّ، قال: قالت أمُّ البنين بنُت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز [وكانت تحت الوليد بن عبد الملك][7]: لو كان البخل قميصًا ما لبِستُه، ولو كان طَريقًا ما سَلَكتُه[8]. وكانت تُعتِق كلَّ[9] يومٍ رقبة، وتحمل على فرسٍ فى سبيل الله. وكانت تقول: البخل كلُّ البخل من بَخِل على نفسه بالجنّة[10].

قيل: وأعتَقتْ هند بنتُ المهلّب[11] فى يوم واحدٍ أربعين رَقَبة.

وروى عن أمّ ذرّ، قالت: أرسل ابن الزبير إلى عائشة بثمانين ومائة ألف درهم، فدعَتْ بطَبق – وهى يومئذ صائمة – فقسمتْه بين الناس حتى أمْسَتْ وما عندها من جميع ذلك درهمٌ واحد، فقالتْ: يا جارية هلُمّى فطِّرينى[12]، فجاءَتْها بخُبْز وزَيْت. فقالت لها: عائشة، أما استطعتِ ممّا قسمت أن

(١) . المحاسن والأضداد ٧٦، ٧٧.

(٢) ط: «أدوى»، الصواب ما أثبته من المحاسن والأضداد ٧٧.

(٣–٣) المحاسن والأضداد: «إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق، غير الجن والإنس وهما الثقلان»

(٤) كذا فى ك، وفى ل: «ليعرفان».

(٥) . المحاسن والأضداد: «أيها».

(٦) . المحاسن والأضداد ٧٧.

(٧) من المحاسن والأضداد.

(٨) المحاسن والأضداد: «أو طريقا ما سلكتها»، والطريق تذكر وتؤنث.

(٩) ك: «فى كل يوم».

(١٠) المحاسن والأضداد ٧٧.

(١١) المحاسن والأضداد ٧٧: «هند بنت عبد المطلب».

(١٢) فطره: أعطاه فطورا.

تشترى لحمًا بدرهم! فقالت: لا تغضبى؛ فلو ذكَّرتنى لفعلت.
وقيل: إنها تصدّقتْ بسبعين ألف درهم؛ وإنَّ درْعها لمرقَّع.

وقال بعض الحكماء: ثوابُ الجود خَلفٌ ومحبّة ومكافأة، وثواب البخل حِرْمانٌ وإتلاف ومَذَمّة[١].

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا علىّ كن شجاعًا، فإنَّ الله جلّ وعزّ يحبُّ الشجاع. يا علىّ كن سخيًّا فإنّ الله عزّ وجلّ يحبُّ السّخاء؛ يا علىّ كن غيورًا؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يحبُّ الغيُور. يا علىّ، وإنْ سائلٌ سألكَ حاجةً ليس لها بأهل؛ فكن أنت لها أهلا»[١].

وقال ﷺ: «السخاءُ شجرةٌ فى الجنَّة، أغْصَانُها فى الدّنيا، من أخذ منها بغُصْنٍ قاده[٢] ذلك الغُصن إلى الجنّة».

قيل: وقال عبد العزيز بن مَرْوان: لو لم يدخل على البُخَلاء فى بُخْلهم إلَّا سوءُ ظنِّهم بالله عزّ وجلّ لكان عظيما[٣].

وقال ﷺ: «تجافوْا عن ذَنْب السخىِّ؛ فإن الله جلّ وعزّ يأخذ بيدِه كلّما عَثَر»[٣].

وقال بهر ام جور: من أحَبّ أن يعرفَ فضلَ الجود على سائر الأشياء، فلينظر إلى ما جادَ الله عزّ وجلّ به من المواهب الجليلة[٤] النفيسة، والنسيم والريح وما وَعدهم فى الجنان، فإنّه لولا رضاهُ الجود لم يصطَنِعه لنفسه[٥].

قال: وقال الموبَذ[٦] لأبرويز: أكنتم تَمُنُّون بالمعروف، وتترصَّدُون عليه بالمكافأة؟ فقال: لا، ولا نستحسن ذلك لخَوَلنا وعبيدنا، فكيف نرى ذلك لأنفسنا! وفى كتاب ديننا: إنَّ مَنْ أظهر معروفًا خفيًّا ليتطاوَلَ به على المنعَم عليه، فقد نَبَذَ الدِّينَ وراء ظهْرِه، واستوجَبَ ألا يُعَدّ فى الأبرار، ولا يُذكَر فى الأتقياء والصالحين[٥].

قال: وسئل الإسكندر: ما أكثر ما سُرِرتَ[٧] به من مُلْكِك؟ قال: اقتدارى[٨] على اصطناع الرجال والإحسان إليهم[٥].

قال: وقال أرسطاطاليس فى رسالة له إلى الإسكندر: اعْلَمْ أنَّ الأيّام تأتى على كلّ شىء فتُخلق الآثار، وتميت الأفعال، إلا ما رَسَخ فى قلوب الناس. فأودِع[٩] قلوبَهم محبّةً بمآثرك تبقى بها حُسنَ ذكرك، وكريمَ فِعالِك. وشريفَ آثارك[١٠].

قيل: ولما قُدِّم بُزُرْجُمْهر إلى القتل قيل له: أنت فى آخر وقت من أوقات الدنيا، وأوّلِ وقتٍ من

---

(١) المحاسن والأضداد ٧٧
(٢) المحاسن والأضداد: «مد به».
(٣) المحاسن والأضداد ٧٨.
(٤) ل: «الجلية».
(٥) المحاسن والأضداد ٧٨.
(٦) الموبذ: رئيس الكهنة.
(٧) المحاسن والأضداد: «ما شيدت به ملكك».
(٨) المحاسن والأضداد: «ابتدارى إلى اصطناع الرجال».
(٩) كذا فى المحاسن والأضداد. وفى ط: «وأودع».
(١٠) المحاسن والأضداد ٧٩.

أوقات الآخرة، فتكلّم بكلام تُذْكَر به، فقال: أيّ شيء أقول! الكلام كثير، ولكن[١] إن أمكَنَك أن تكون حديثًا حَسَنًا فافعل[٢].

قيل: وتنازع رجلٌ من أبناء الأعاجم وأعرابيٌّ في الضِّيافة، فقال الأعرابيّ: نحن أقْرَى للضيف، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ أحدنا ربّما لم يَملك إلّا بعيرًا فإذا حلّ به ضيف نَحَر له، قال العَجَميّ: فنحن أحسنُ مَذْهَبًا في القِرَى منكم. قال: وما ذاك؟ قال: نُسَمّي الضَّيْف «مِهْمان»، ومعناه أنّه أكبر مَنْ في المنزل وأملكنا به.

وقال بعض الحكماء: قام[٣] بالجودُ، من قام بالمَجْهود[٢].
وقيل: من لم يضنّ[٤] بالموجود هو الجَوَاد.
وقال المأمون: الجود بذْل الموجود، والبخلُ سوء الظّن بالمعبود.

* * *

قيل: وشكا رجلٌ إلى إياس بن معاوية كَثْرة ما يَهَب ويَصِل ويُنْفق، فقال: إنّ النفقة داعية إلى الرزق - وكان جالسًا بين يا بين - فقال للرجل: أغلِق هذا الباب فأغْلَقَه، فقال: هل تدخُل الريح البيْت؟ قال: لا، قال: فافتحْه، ففتحَه، فجعلت الرياحُ تخترق البيت، فقال: هكذا الرزقُ، إنّك إذا غلّقْتَ الباب لم تَدخل الرّيح، وكذلك إذا أمسكتَ لم يأتِك [الرزق][٥].

* * *

قيل: ووَصَل المأمونُ محمد بن عبّاد المهلّبيّ بمائة ألف دينار، ففرّقها على إخوانه، فبلَغ ذلك المأمون، فقال: يا أبا عبد الله، إنّ بيوت المال لا تقوم بهذا، فقال: يا أميرَ المؤمنين، البخل بالموجود، سوءُ ظنٍّ[٦] بالمعبود[٧].

* * *

وعن أمية بن يزيد الأمويّ؛ قال: كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، فجاءَه رجلٌ من أهل بيته، فسأله المعونة على تزويج[٨]، فقال له قولاً ضعيفًا فيه وعدٌ وقلّةُ طَمَع، فلمّا قام[٩] من عنده ومضى، دعا صاحبَ خِزانته، وقال: أعطه أربعمائة دينار، فاستكثرناها وقلنا: كنت رددت عليه ردًّا ظننّا أنك تعطيه شيئًا قليلًا، فإذا أنت قد أعطيته أكثر ممّا أمّل! فقال: إني أحبُّ أن يكون فِعلي أحسَن من قولي[١٠].

* * *

---

(١) ك: «ولكنك».
(٢) المحاسن والأضداد ٧٩.
(٣) المحاسن والأضداد: «بلغ الجود».
(٤) ك: يضر، ل: «يظن».
(٥) تكملة من المحاسن والأضداد ٧٩، ٨٠.
(٦) ك: «الظن».
(٧) المحاسن والأضداد ٨٠.
(٨) ك: «التزويج».
(٩) ك: «قدم».
(١٠) المحاسن والأضداد ٨٠.

وبحاتم يُضرَب المثل فى السّخاء، فحدَّثنا عن بعض رجالات[١] طيىء قال: كان حاتمٌ جوادًا شاعرًا، وكان حيثما نزل عُرِف منزله، وكان مظفَّرًا، إذا قاتلَ غَلَب؛ وإذا غَنِمَ أنْهَبَ، وإذا سُئِل وَهَبَ، وإذا ضَرَب بالقِدْح سَبَق، وإذا أسَرَ أطلق. وكان أقسم ألّا يقتُلَ واحِدَ أُمِّهِ، ولمّا بلغ حاتمًا قولُ المتلمِّس:

وأعلمُ علمَ حقٍّ غيرَ ظَنٍّ ... وتقوى الله من خير العَتاد[٢]
لحفظُ المالِ خيرٌ من بُغاهُ ... وطَوْفٍ فى البلادِ بغير زادِ
قليلُ المالِ تَصْلِحه فيبقَى ... ولا يَبقى الكثيرُ على الفَسَاد

[الوافر]

قال: ماله قطع الله لسانَه، حرّض الناسَ على البُخل! أفلا قال:

فلا الجودُ يُفنى المالَ قبلَ فنَائِه ... ولا البخلُ فى مال الشّحيح يزيدُ[٣]
فلا تَلْتَمِس بُخلا بعيشٍ مقتِّر ... لكلِّ غدٍ رزقٌ يعودُ جديدُ
ألم ترَ أن الرزقَ غادٍ ورائحٌ ... وأنّ الذى يعطيك سوف يعيدُ![٤]

[الطويل]

* * *

قيل: ولمّا مات حاتمٌ خرج رجل من بنى أسَدٍ يُعرف بالخيبرىّ فى نفر من قومه، وذلك قبل أن يَعلمَ كثيرٌ من العَرَب بموته، فأناخوا بقَبره، فقال: والله لأحلفنَّ للعرب أنّى نزلتُ بحاتمٍ وسألتُه القِرَى فلم يَفْعَل، وجعل يَضْرِبُ برجله قبره؛ وهو يقول:

أعْجِلْ أبا سَفّانةٍ قِراكا ... فسوف أُنبى سائِلى ثَناكا[٥]

[الرجز]

فقال بعضهم: مالك تنادى رِمّة! وباتوا مكانَهُم. فقام صاحب القول من نومه فَزِعًا، فقال: يا قوم، عليكم مَطَاياكم، فإنّ حاتمًا أنْشَدَنى:

أبا الخيْبرىّ وأنتَ امرُؤٌ ... ظلومُ العشيرةِ شَتّامُها
أتيتَ بصَحْبك تبغى القِرى ... لدى حُفْرةٍ صَخِبٍ هامُها
تَبغى لىَ الذَّمَّ عند المبيتِ ... وحَوْلك غَوْثٌ وأنعامُها
فإنا سَنُشبِع أضيافَنا ... ونأتى المطىَّ فنعتامُها[٦]

---

(١) المحاسن والأضداد: «حالات».
(٢) الأغانى ٢١: ١٣٦ (ساسى).
(٣) المحاسن والأضداد ٨٠.
(٤) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «غير بعيد».
(٥) الثحل: العطية.
(٦) الخبر والأبيات فى المحاسن والأضداد ٨٢، وفى الأغانى ١٦: ٩٧، ٩٨، والخزانة ١: ٤٩٥، واللآلى ١٤٧، مع اختلاف فى الرواية.

قيل: ونزل على حاتم ضيفٌ ولم يَحضُره قِرًى، فنحرَ ناقَة الضَّيف وعَشَّاه وغدَّاه، ثم قال له: إنَّك أقرضتنى ناقتَك فغدَّيتُك[١]، فاحْتكِم[٢]، قال: راحلتيْن، قال: لك عشرون، أرضيتَ؟ قال: نعم، وفوق الرِّضا. قال: فلك أربعون، ثم قال لمن بحضرته من قومه: مَنْ أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة؛ فأتَوْه بأربعين فدَفَعها إلى ضيفه.

* * *

وحَكَوْا عن حاتم أنَّه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما كان بأرض عَنَزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفّانة، أكلَنى الإسار! قال: ويْلَكَ! والله ما أنا فى بلادى، وما معى شىء، وقد أسأت أن نوّهت بى! فَذَهب إلى العنْزِيِّين فساوَمَهُمْ به واشتراه منهم، وقال: خَلُّوا عنه وأنا أقيم مكانَه فى قيدِه حتى أؤدّى فَداه. ففعلوا فأتاهم بفدائه[٣].

* * *

وقيل فى المَثَل: هو أجوَدُ من كعب بن مامة. وكان من إياد، وبلغ من جُوده أنه خرج فى رَكْب وفيهم رجل من أهل النَّمِر بن قاسطٍ فى شهر ناجر - والنّجَر العطش - فضَلُّوا وتَصافنوا[٤] ماءَهم، فجعل النمرىُّ يَشْرَب نصيبَه فإذا أصاب كَعْبًا نصيبه قال: أعط أخاك يَصطبح، فيؤثره على نفسه حتى أضرّ به العطش[٥]، فلما رأى ذلك استحثَّ راحلتَه وبادَرَ حتى رُفِعت له أعلام الماء، وقيل له: رِدْ كعبُ فإنك وارد، فغلبه العطش، فمات ونجا رفيقُه[٦].

* * *

وقيل فى المَثَل: هو أسمحُ من لافِظة، وهى العَنْز تُستدعَى للحَلْب، فتجىء إليه وهى تَلفظ بجِرَّتها فرَحًا بالحَلْب.

وقال الشاعر:

يـداكَ يَدٌ خيـرُهـا يُـرْتَجَى ... وأخـرى لأعْدَائهـا غـائـظَهْ
فـأمـا الَّتى خيْـرُها يُـرتجَىَ ... فأجودُ جُـودًا من اللّافِـظَه
وأمـا التى شَـرُّهـا يُتَّقى ... فنفسُ العـدوّ بهـا فـائـظَه

[المتقارب]

* * *

قيل: وخرج معاويةَ بن أبى سفيان ذاتَ يوم، فقام إليه رجل فقال: قد أمّلتكَ لِمهمّ، فما عِوَضى من ذلك! قال: إبلاغُك أمنيّتَك، فتمنّ، قال: ألف دينار، قال: هى لك ومثلُها؛ استظهارًا لبقاء النعمة عليك.

---

(١) ك: «فغديتك بها».
(٢) ك: «فأحتكم على».
(٣) المحاسن والأضداد ٨٢.
(٤) تصافن القوم: تقاسموا الماء بالحصص.
(٥) محاضرات الأبرار: «فأضر بهم».
(٦) المحاسن والأضداد ٨٢ ومحاضرات الأبرار ١: ٢٦٠.

وقال المهلّب بن أبي صُفْرة لبنيه: يا بَنِيّ إن ثيابَكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودَوابَّكم تحتَ غيركم أحسن منها تحتَكُم.

وكان يقول لولده: لا تَتكلوا على ما سبق مِن فعلي، وافعلوا ما يُنْسِب إليَّ، ثم قال متمثِّلا:

إنما المجدُ ما بَنَى والدُ الصِّدْ قِ وأحيا فِعالَـهُ المولـودُ

[الخفيف]

ويقول: ابتداء الفَضْل يَدٌ موفورة، والبَذْل بعد الطلب يدٌ مقبوضة.

* * *

فأمّا صِلات الخلفاء وسخاؤهم؛ فإنه حدّثنا هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادى، قال: حدَّثنى علىّ بن صالح، قال: كنت يومًا على رأس الهادى وأنا غلام، وقد جَفَا[١] المظالم ثلاثةَ أيّام عاقَر العُقار فيها، فدخل عليه الحرّانىّ[٢] فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ العامّة لاتقاد - أو قال: لا تنقادُ - لما أنت عليه، لَمْ تنظُر فى أمرِ المظالم منذ ثلاثة أيام. فالتفت إلىّ فقال: يا علىّ، ائذنْ الناس علىَّ بالجَفَلى لا بالنَّقَرى، فخرجتُ من عنده وأنا أطير على وَجْهى لا أدرى ما قال لى. فقلت: أرجعُ فأسأله عمّا قال، فيقول: تحجُبنى ولا تعلم كلامى! ثم أدْرَكنى ذِهنى؛ فبعثتُ إلى أعرابىّ كان وَفَدَ علينا، فسألته عن الجفَلى والنّقَرى، فقال: الجفَلى جُفالة الرجال، والنَّقرى ترتيبُهم. فأمرتُ بالسُّتور فرفُعت، وبالأبواب فَفُتِحت، فدخل الناسُ على بَكْرة أبيهم، فلم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل، فلما تقوّض المجلس [مثلتُ بين يديه، فقال: كأنّك تريد أن تذكر شيئا يا علىّ][٣] قلت: [نعم] يا أمير المؤمنين، كلّمتَنى بكلام لم أعرفه[٤]، [قبل يومى هذا، وخفت مراجعتك فتقول: أتحجبنى وأنت لم تعلم كلامى!] فبعثت إلى أعرابىّ كان عندى[٥] ففسّره لى، وفهمنى؛ فكافئه عنّى يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهم تحمل إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، [إنه] أعرابىٌّ جِلْف، وفى عشرة آلاف درهم ما أغناه [وكفاه]، فقال: وَيحك[٦]! أجودُ وتَبخَل[٧]!

قال: وحدّثنا عبدُ الله بنُ عمرو الْبَلْخىّ، عن ابن دأب، أنّه كان يأكل مع الهادى وينادِمُه وكان يدعو له متّكَأ[٨] - وما كان يفعل ذلك فى مجلسه بغيره؛ وكان لذيذ المفاكهة، طيِّبَ المُسامرة، كثير النادرة، جيد الشِّعر، حَسَنِ الانتزاع - قال: فأمر له ذاتَ ليلة بثلاثين ألفَ دينار، فلما أصبح وجّه قَهْرمانَهُ إلى باب موسى وقال له: الق الحاجبَ، فقل له يوجّه إلينا بهذا المال. فلقَى الحاجبَ، وأتاه

---

(١) كذا فى الطبرى، وفى ل: «خفى»، وفى ك: «خفى عليه».

(٢) كذا فى ل والطبرى. وفى ك: «الخزامى».

(٣) من تاريخ الطبرى.

(٤) الطبرى: «لم أسمعه».

(٥) الطبرى: «عندنا».

(٦) الطبرى: «ويلك».

(٧) الخبر فى الطبرى ٣: ٥٨٢ (طبع أوربا)، وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٠.

(٨) ط: «بتكاء» وما أثبته من الطبرى.

برسالته، فتبسّم وقال: هذا ليس إلىّ؛ فانطلق إلى صاحب التوقيع ليُخْرج إليك[١] كتابًا إلى الديوان فَتدبِّره ثم تفعل فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبَره، فقال: دعها ولا تعرّضْ لها. قال: فبينا موسى فى مستشرَف له [ببغداد][٢] إذ نظر إلى ابن دَأبٍ قد أقبل، وليس معه إلاّ غلام واحد، فقال لإبراهيم الحرّانى[٣]: أما ترى ابن دأب! ما غيّر من حاله شيئًا، [ولا تزيّن لنا][٢]؛ وقد بَرَرْناه بالأمس، لِنَرى أثرَ ذلك عليه.

فقال إبراهيم: إن أمرنى أمير المؤمنين تعرّضتُ له بشىء من أمره[٤]؛ قال: لا، هو أعلمُ بأمره. ودخل ابنُ دأب وأخذنا فى حديثه إلى أن عَرّض له موسى بذكر ذلك، فقال: أرى ثوبك غسيلاً، وهذا شتاء يُحتاجُ فيه إلى الثوب الجديد اللّين. فقال: يا أمير المؤمنين، باعى قصير عمّا احتاجُ إليه. قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برِّنا ما ظننا أنّ فيه صلاَحَ شأنِك! قال: ما وَصَل إلىّ ولا قبضتُه.

فدعا صاحب بيت مالِ الخَاصّة وقال: عجّل له السّاعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرتْ وجُعلت بين يديه[٥].

* * *

وقال الحسن بنُ يحيى بن عبد الخالق: حدّثنى محمد بن القاسم بن الربيع، قال: أخبرنى محمدبن عمرو الروميّ؛ قال: حدثنى أبى قال: جَلَس الهادى مجلسا خاصًّا، فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبى جعفر، وإبراهيم بن سلم بن قُتيبة بن مسلْم، والحرَّانىّ، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادمٌ للهادى أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلّى، فقال: هارون بن المهدىّ! قال: ائذنْ له. فدخل وسلّم عليه وقبّل يدَه، وجلس عن يمينه بعيدًا، فأطرقَ موسى، ثم التفت إليه وقال: يا هارون، كأنّى بك تحدِّث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمِّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خَرْط القَتاد! تؤمِّل الخلافة! قال: فبرك هارونُ على ركبتيه وقال يا موسى، إنّك إن تجبَّرتَ وُضعتَ، وإن تواضعتَ رُفِعْتَ، وإن ظَلَمت خُتِلْتَ[٦]، وإنى أرجو أن يُفْضِى إلى الأمر فأنصف مَنْ ظلمت، وأصلَ من قطعتَ، وأصير أولادَك أعلى من أولادى، وأزوِّجهم بناتى، وأبلُغَ ما يجب من حق الإمام المهدىّ.

فقال له موسى: ذلك الظّن بك يا أبا جعفر، أُدنُ منىّ. فدنا وقبّل يدَه، ثم ذهب يعود إلى مجلسه فقال: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل - أعنى أباك المنصور - لاجلستَ إلاّ معى. فأجلسه فى صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرانىّ، أحمِل إلى أخى ألفَ ألفَ دينار، وإذا افتتُح الخراجُ فاحمل إليه

---

(١) الطبرى: «له».
(٢) من الطبرى.
(٣) ك: «الخزامى».
(٤) ك: «من ذلك» الطبرى: «من هذا».
(٥) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ٥٨٩، ٥٩٠ (طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٧.
(٦) ك: «خبلت»، وفى ابن الأثير: «قتلت».

النِّصف، واعرضْ عليه ما فى الخزانة[١] الخاصّة وسائر الخزائن من مالنا، وما أُخِذ من أهل بيت اللّعنة[٢] فيأخذ منه ما أراد.

قال: ففعل ذلك، فلّما قام قال لصالح: أَدن دابّته إلى البساط.

قال عمرو الرومىّ: وكان هارون يأنَس به قلت: يا سيدى، ما الرؤيا التى قال لك؟ قال المهدىُّ: رأيت فى منامى كأنى دفعتُ إلى موسى قضيبًا، وإلى هارون قضيبًا[٣] أورقَ من قضيب موسى وأعلى منه[٣]؛ فأما قضيبُ هارون فأورقَ من أوّله ألى آخره، وكان قضيب موسى دونَ قضيب ذلك.

فدعا المهدىُّ الحكَم بن موسى العَنَزِىّ[٤] - وهو الّذى بنى أبوه واسطًا للحجّاج - فقال له: عبر هذه الرؤيا. قال: يملكان جميعًا، فأما موسى فتقلّ أيّامه، وأمّا هارون فيبلغ مدى آخر ما عاشَ خليفة، وتكون أيّامه أحسن أيامٍ وأنضرها، ودهره أحسن دهر. قال: فلم يلبث إلّا أيامًا يسيرة حتى مات موسى، وتولّى الأمر هارون، فزوّج حمدونة من جعفرَ بن موسى، وفاطمة من إسماعيل، ووفّى بكلّ ما قال. فكان دهره أحسنَ الدهور[٥].

* * *

محمد[٦] بن علىّ بن الحسين العَلَوىّ، قال: كنتُ عند عمر بن الفرج الرُّخَّجىّ فى اليوم الّذى عقد فيه المأمون لأخيه أبى إسحاق على ثغر المغرب، ولابنه العبّاس على الشام والجزيرة، ولعبد الله ابن طاهر على الجُند ومحاربة بابَك، وعند عمر جماعةٌ من الهاشميين، فتذاكرْنا أمر هؤلاء الثلاثة، فقال عمر: فرَّق أميرُ المؤمنين فى[٧] هؤلاء الثلاثة ما لم يفرِّق مثله أحدٌ منذ كانت الدنيا؛ أمر لأخيه أبى إسحاق بخمسمائة ألف دينار، ولابنه العباس بخمسمائة ألف دينار، ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار، فمن سختْ نفسُه بمثل هذا!

* * *

وكان للبرامكة فى هذا الشأن ما لم يكن لأحد من الناس؛ منها أنّهم كانوا يَخْرُجون باللّيل سرًّا، ومعهم الأموالُ يتصدّقون بها، وربما دَقُّوا على الناس أبوابَهم، فيدفَعون إليهم الصُّرّة فيها ما بين الثلاثة آلاف إلى الخمسة آلاف والأكثر من ذلك والأقّل، وربما طَرَحوا ما معهم فى عَتَب الأبواب،

---

(١) الطبرى: «الخزائن».

(٢) زاد ابن الأثير: «يعنى بنى أمية».

(٣-٣) الطبرى: «فأورق من قضيب موسى أعلاه».

(٤) الطبرى: «الضمرى».

(٥) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ٥٧٦ - ٥٧٨ وتاريخ ابن الأثير ٥: ٧٨.

(٦) ك: «حدثنا».

(٧) ك: «على».

فكان النَّاس لاعتيادهم ذلك يَعْدُون إلى العَتَب إذا أصبَحوا يَطلُبون ما أُلقِيَ فيها.

* * *

ومنهم خالد بن برمك فإنه حدّثنا يوسف بن سلّام الزعفرانىّ، قال: حدثنى أبى قال: قال خالد بن برمك - وهو بالرّىّ، وأراد الخروج يومًا إلى مجلس له وإخراج[١] دوابِّه إلى الخضرة[٢] ونحن قيام بين يديه: من يخرج مع هذه الدوابَّ؟ قال أبى: أنا - وليس أحد يجترئ أن يتكلّم - فقال: أخرُج معها، فخرجت وكنت أحسِن إليها، فلما رددتُها حَمد أثرى فيها، فقلت: أيها الأمير، لى حاجة! فقال: وما حاجتك؟ قلت: أمى مملوكة لقوْم[٣] بالبصرة، وحاجتى أن يشتريَها الأمير، قال: وكم ثمنُها؟ قلت: ثلاثة آلاف درهم، قال: ثلاثة آلاف؟ قلت: نعم، قال: اعطوه ثلاثة آلاف درهم، وقال لى: اشْتَرِها الآن وأعْتِقْها. ثم قال: ما تريد؟ قلت: الحجّ، أحجُّ وتحجُّ هى أيضًا[٤]، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم: قلت: نحتاج إلى خادم يخدمنا. قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لثمن خادِم. قلت: نحتاج إلى ثمن كِسْوة[٥]. قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لكسوتهم[٦] فلم أزل أقولُ وأعدّ شيئًا شيئًا حتى قلت: واحتاجُ إلى منزل، واحتاج إلى فَرَس، وهو يقول: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، حتى أخذتُ ثلاثين ألف درهم.

* * *

قال: وحدّثنا يزيد البرمكىّ، قال: كسا خالد كل ثوب كان له حتى لم يبقَ عليه من كِسوته إلّا طَيْلَسَان خَلَق، فاتّصل خبرُه فى كسوته بامرأته أم خالد بنت يزيد، وكانت بالرّىّ، فبعثتْ إليه بكسوة من الرىّ؛ طَيْلَسان مُطبَّق لم أرَ مثله جودَةً وحسنًا وسعةً، وكان خالدٌ ذا بَسْطةٍ فى الجسم، فكان يحتاج إلى أسبَغ ثوبٍ وأتمّه، فَوُضع بين يديه، فنظر إليه، ثم رفع رأسَه إلىّ، فقال: يا يزيد، كيف ترى هذا الطيلسان؟ قلت: ما رأيتُ مثله، وإنّ بالأمير إليه لحاجة[٧]. قال خالد: أصنع به ماذا؟ قلتُ: تلبَسه أيها الأمير. قال: أنا والله إلى غير هذا أحوَج. قلتُ: وما هو؟ قال: أن تقومَ الساعةَ على شريف من أشراف الناس، أو حرٍّ من أحرارهم فتُتْحِفَه به، فيقوم فَيَلبسه كلَّ يوم عيد، أو يخرج[٨] إذا خرج نحو أهله، فيلبسه عند قدومه عليهم، فيقول: هذا كِسوة خالد؛ هذا والله أفضلُ وأشرفُ من لبسى إيّاه[٩].

قال: فكساه بعضَ عُفاته.

* * *

---

(١) ك: «وأخرج».
(٢) ك: «الحضرة».
(٣) ك: «لقرم»، والقرم: السيد.
(٤) ك: «معى فقال».
(٥) ك: «الكسوة».
(٦) ك: «لثمن كسوتهم».
(٧) ك: «حاجة».
(٨) ك: «ويخرج».
(٩) ك: «له».

ومنهم يحيى بنُ خالد، فإنّه حدّثنا عليّ بن الحسين الأشقر، عن عبد الله بن أسوار، قال: كنت أخُطّ بين يدىْ يحيى، وكان خطّى يُعجبه، فبينا أنا جالس بين يديه إذ ناولَه رجل كتابًا، فَثَنَى أعلاه وجَعَل يقرؤه فدخل الفضل ابنُه فسلّم وجلس، ثم أقبل على رجل يحدّثه وطَرْف يحيى فى الكتاب الذى بيده، فقال الفضل لذلك الرجل: إنى لأعجب كثيرًا من أمرِ نحن فيه! كان الرجل يصل الرجلَ بخمسين ألف درهم فتُغنيه وعشيرته، فيكتفُون بها، ونَرَى ذلك فى وجوههم ويتبيّن عليهم أثره، ونحن نصل الرجل بخمسمائة ألف درهم والأكثر فلا نَرى ذلك فى وجوههم. فالتفت إليه يحيى وقطع قراءة الكتاب، فقال: يا أبا العباس، إذا كان أملُ الرجل ألف ألف درهم وأعطيته خمسمائة ألف لم تَقَع منه مَوقِعًا، وإنما يُرَى[١] فى وجه الرجل ما بلغ به الأملَ.

فعجَب أهلُ المجلس من كرمه وقوله، ومازالوا يَحكُونه[٢] عنه.

* * *

وحدّث ابن مَرْوع، عن أبيه قال: كنتُ أسيرُ فى موكب يحيى بن خالد، فعرَض له رجلٌ من العامة ومعه كتاب، فقال: أصلح الله الأمير[٣]! اختِمْ هذا الكتاب، فبادر إليه الشاكريّة يزجُرونه من حواشى موكبه، فقال: دَعوه قبل ألّا ننتفعَ به - يعنى خاتمه - واستدناه فَخَتَمه له. وتعجّب مُسايروه من اغتنامه المعروف، وعلمه بأفعال الرجال[٤].

* * *

وحدّث صالح بنُ سليمان، قال: وذُكِرَ ليحيى وهو مجاور بمكّة أن بجُدّة قومًا يصيدون السّمك وبيبعُونه ويشترون طعامهم به فإن[٥]، لم يجدوا صيدًا مكثوا أيامًا لا يأكلون، يشُدّ الرجل على بطنه حجرًا، ولا يسألون الناس شيئًا، وربما مات أحدُهم جوعًا. فقال: هؤلاء أعجَبُ قومٍ سمعت بهم! ينبغى أن نلتمس الثواب فيهم. فبعث فحُمل إليه بعضهم، فسأله عن حالهم، فأخبره، فقال: وكم أنتم؟ فذكر عدّة، فقال: وكلُّكم على هذه الطريقة[٦]؟ قال: نعم. قال: فما يُغنيكم؟ قال: تُحفر لنا بركةٌ يجتمع فيها ماء السماء، فإن الماء يعِزُّ بالبلاد إلّا على من كانت له مَصْنَعة، فيشرَب منها ويبيع فَضْلَها وينتفع ثمنه.

قال: فبكم يَكتفى أحدُكم فى الشهر؟ قال: بأربعة دراهم لكلّ رجل، وللمرأة ستة دراهم، قال: فإنى قد أجرَيْتُ لكلّ رجل عشرةَ دراهم، ولكل امرأة ثمانية عشر درهما. فهل تتزوّجون؟ قال نعم، قال: فكم مُهور[٧] نسائكم؟ قال: أربعمائة دِرْهم. قال: فإنى آمر بإعطائكم ما أجريْت عليكم لسبعِ سنين، ولمهور نسائكم عشرين ألف درهم. قال: مَنْ يدفع هذا المال إلينا؟ فأشار إلى غلام أمرَدَ معه، فقال: ادفعْ إلىّ هذا المال. فدفع[٨] إليه، فقال: أتأذن أن أشترىَ - أصلَحَك الله - من

---

(١) ك: «ترى».
(٢) ك: «يحكون».
(٣) ك بعدها: «الوزير».
(٤) ك: «الزمان».
(٥) ك: «فإذا».
(٦) ك: «الحالة».
(٧) ك: «مهر».
(٨) ك: «فدفعه».

هذا المال تابوتًا أجعله فيه! قال: نعم، وأمرَ باتّخاذ برْكةٍ لهم، بلغت النفقة عليها[١] عشرين ألف درهم.

* * *

وحدّثنا يزيدُ البرمكيّ قال: قدم الواقديّ من المدينة بأسوأ حال، فصار إلى يحيى وهو لا يعرفه، فوضع الطويلة على رأسه، فركب يحيى وخرج، فرآه جالسًا على باب داره فى زىّ القُضاة، فقام الواقدىّ وأثنى عليه، ودعا له. ومرّ يحيى فى موكبه إلى دار أمير المؤمنين، ثم انصرف وإذا الواقدىُّ فى مجلسه ذلك، فقام إليه ودعا له وأثنى عليه، فدخل فى منزله، وجلس الواقدىُّ فسأل يحيى عنه، وقال: مَنْ هذا الشيخ الرَّثّ الهيئة؟ فلم يعرفه أحد. فقال: ويْحكُمْ! لا أشك إلاّ أنه شيخٌ أصيل، معه عِلْم وفِقه، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار، وأمر وكيلًا له أن يدْفعَها إليه، وكان قُصارى الواقدىّ ومُناه أن يصلَه بألف درهم. فخرج الرسول ووضع الكيس فى حِجْره، فلمّا رأى عِظَم الكيِش، أقبل يدعو ليحيى ويثنى عليه، ثم قام وانصرف إلى منزله، وقد أخذته الرعدة والحرصُ أن يرى ما فى الكيس فيعرِف منتهاه، فلما صار إلى حُجْرته استعار من بعض جيرانه ميزانًا وصنجات، ثم فتح الكيس وإذا أربعة آلاف دينار، فكاد أن يُغشى عليه من السرور، فرمّ من حاله، واتّخذ ثيابًا سَوِيّةً، وعزم على أن ينصرف إلى المدينة، فلما كان من الغد بكّرَ على يحيى ليودّعه، فدخل وأنْشَد، فرآه عالمًا فقيهًا مسامرًا بليغًا. فأعجب به، فقام ليودعه، فقال: أقِمْ عندنا ولك فى كلّ حول هذا المقدار. فأقام عنده.

* * *

وحدّثنا يعقوب بن إسحاق، قال رأى رجل من الموالى ليحيى رؤيا عجيبة، وكان يحيى على حال الخوف والوجل من الهادى، فقصّ الرؤيا على أبيه، فقال: يا بُنىّ، هذه والله رؤيا[٢] عجيبة، وأخْلِق به؛ لأنّ الرشيدَ فى حِجْره، وولايةُ العهد له.

قال: يا أبتِ؛ أفترى[٣] أن أُخْبِرَه بها؟ قال: يا بُنىّ لا تفعل، فإنّ السلطان غليظ عليه، وهو يرميه بالزّندقة، وأنا أشفق عليه من إتيانه، لأنّه لا يَقبل مثلَ هذا فى هذا الوقت، فعَصى الرجل أباه وأتاه. قال الرجل: فلمّا دخلتُ عليه رأيتُ المصحف بين يديْه يقرأ فيه، فعجبتُ ممّا قيل فيه فلمّا خفّ مَنْ عندَه دنوتُ منه، فقصصتُ عليه الرؤيا، فقال: يا بن أخى، ما أحسن بالرجلِ أن يَلتمسَ الرزقَ بالأحسن الأجمل! وأقبحْ به أن يَلتَمِسهُ على هذا وبما تذكره مما يشبههُ. فخرجتُ من عنده وقد سقط وجهى، فأتيت أبى فأعلمتهُ فقال: بعدًا لك وسُحْقًا! قد نصحتُ لك فلم تقبل. ثم أقبل يشتمه وتَشتُمه أمّه وأهله، يقولون: نشهد عليك أنّك من الزنادقة المعطّلين.

قال: ثم[٤] لم يلبث أن توفّى الهادى، وأفضى الأمر إلى الرشيد، وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينا هو فى موكبه يومًا، إذ بَصُرَ بى، فوجّه إلىّ ودعانى فدخلتُ عليه وهو على كرسىّ قد طرحَ ثوبه،

---

(١) ك: «عليه».
(٢) ك: «الرؤيا والله».
(٣) ل: «فترى».
(٤) ك: «فلم».

وجعل يمسح وجهَه، فلما دنوتُ منه قال: أين كنت عنّا؟ قلت: أعزّك الله! والله ما لقيتُ منك ما يدعو إلى إتيانك، قال: ويحك! إنك أتيتَنَا ونحن فى حال[١] كنّا نتخوّف الجُدُر أن يكون فيها مَنْ يَسْعَى بنا، والإخوانَ أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأى أن أجيبكَ إلاّ بما أجبتُك، والله[٢] ما فارقنى الفِكر فى العناية بك، والإيجاب لك، والمعرفةِ بحقّك، منذ وقعتْ عليك عينى.

ثم أمر سلاّمًا بإحضار عشرة آلاف درهم، فأُحضِرَتْ، وأمر بالكتاب[٣] إلى سليمان بن راشد بأرْمِينيَّة. فدفع المال إلىّ ، وحَمَلَنى وخَلَع علىّ، وقال: اذهب فأصلِحْ [بها][٤] شأنَك وتعال فتسلَّمْ كتبك، وأمر لى بعشرة من دوابّ البريد، فانصرفتُ إلى منزلى وتحتى دابّة وعلىّ خِلْعة، ومعى عشرة آلاف درهم. فقال أبى: ما هذا يا بنىّ؟ فأعلمتُه الخبر، فما زلت وأهلى وأبى ندعو له ونَشهدُ أنّه من الصّديقين والشهداء والصالحين. فقلت لبعض جيراننا: ما أصنع بعشْر دوابّ البريد؟ فقال: أكرِها فإنك تصيب فى السِّكك من تقصُر به دوابُّه عن حاجته، فيكترى منك. قال: فلمّا كان من الغد عدْتُ إليه، فأخذت كُتُبى وجَوازى، فلمّا صِرتُ إلى السّكّة وجدت رجلاً كبيرًا قد وُجِّه إلى تلك الناحية، ولم يكتف بما حُمِل عليه من الدوابّ ، فأكريتُ له[٥] ثمانىَ دوابّ، وخرجتُ على دابّتين، أنا على دابّة، وغلامى على أخرى، ولم أزَلْ فى حَشم المكترى حتى صِرْنا إلى أوّل العَمَل، فإذا يحيى قد سبقنى بالكتاب إلى سليمان: أنّ رجلاً من حاله كيت وكيت، وله عندى أيادٍ، فاخترتُك له، فكن عند ظنّى بك فى أمره، وافعلْ به وافعلْ.

قال: فوجّه سليمانُ قائدًا فى جند عظيم لاستقبالى، حتى إذا اتّصل به دُنُوّى استقبَلنى فى وجوه أهل البلد، فلمّا دنا منّا بادر إلى الرجل المكترى منّى، ولم يشكّ أنّى هو، وسأله فأعلَمه المكترى أنه فلان ابن فلان، فقال سليمان: توهّمتُك فلانًا! قال: لستُ هو، ولكنّه ذاك - وأشار إلىّ - فأقبل سليمانُ ركضًا إلىّ، وتضاءَلتُ منه حياءً لرثاثة حالى، فسألنى وأعلمنى أنّه وجّهَ[٦] إلىّ وكيلَه، وحَمَلَ معه هدايا، فقلتُ: ما وصل ذلك إلىّ. فلما نزلنا وحططنا فى بعض تلك المنازل؛ إذا وكيله قد وافَى بهداياه[٧]، وإذا دوابّ وبغال مُوقَرة، وتخوت وثياب، فدخلتُ البلد وقد حسُنت حالى.

فلما كان من الغد ركب إلىّ وقال: قد أعلمنى أبو علىٍّ - أعزّه الله - عن حالك، ووكّد[٨] علىّ فى كتابه، وليس عندى إلاّ إطلاق العَمَل لك، وهاهنا نَشْوَى الكبرى، ونَشْوى الصغرى؛ وهما من أجلّ الأعمالِ بأرمينيّة ونواحيها، فإن شئتَ أن تخرجَ إليهما فاخْرج، وإن شئت فها هنا من يَبذُل عنهما خمسمائة ألف درهم.

قلت: لا والله - أبقاك الله - إلاّ الخمسمائة الألف؛ عجِّلها لى، فأنصرف إلى أبٍ، شيخ كبير، وعيالٍ قد خلّفتهم ورائى. قال سليمان: ذاك إليك، فلمّا خرج سليمانُ سألت عن نشوى ونشوى قال: فقيل مقاطعتها[٩] خمسمائة ألف درهم، ويصير إلى المقاطِع مثلُها. ثم لم ألبث من الغد أن أتى

---

(١) ك: «على حال».
(٢) ك: «فوالله».
(٣) ك: «بكتاب».
(٤) من ك.
(٥) ط: «منه».
(٦) ك: «إليه».
(٧) ك: «بهدايا».
(٨) ك: «أكد».
(٩) ك: «مقاطعها».

رسولُه بالمال، فخرجتُ وأهديتُ يحيى هدايا كثيرة، وألطافًا جليلة ممّا كان برّنى به سليمان. فلما دخلت إليه تبسّم إلىَّ وقال: إنّا لم نوجِّهك لننتفع[١] بك، بل وجّهناك لتنتفع بنا، وسيتّصِل[٢] معروفنا إليك فالزمنا. فكَسَبْت بجاهه - ما مع وصل إلىَّ منه، ولم يزل يَصِلُنى به - عشرين ألف ألف درهم.

* * *

وحدّثنى أيوب بن هارون بن سليمان بن علىّ، قال: جاء يحيى ومعه ابنه جَعْفر إلى عبدالصّمد بن علىّ، فسلّم عليه، وببابه فتىً من ولَد عبد الله بن علىّ، فقام إلى جعفر؛ فقبَّل يدَه، فقال له: ائتِنى وارفعْ إلىَّ حوائجَك [لأرفعها] إلى أمير المؤمنين، وقد أمرتُ لك بخمسة آلاف دينار. فقال يحيى: وقد أمرتُ لك بمثلِها، وأجريتُ عليك ثلاثة آلاف درهم فى كلّ شهر، فابعث بمن يَقْبِض ذلك!

فلما انصرف، دعاهُ عبد الصمد فقال: لم فعلتَ ما فعلت[٣]؟ فقال: أنا ابن أخيك، وإنما تصلنى فى السنة بأربعة آلاف درهم، وقد أغنانى هذا وأبوه فى ساعة واحدة، فكيف تلومنى على ذلك!

* * *

وحدّث يحيى بن محمد، قال: لمّا خرجَ الرّشيدُ إلى القاطول[٤] قال ليحيى: يا أبتِ لا تَفْجَعْنى بك، وكُنْ معى فى هذا الوجه لآنسَ بك. فَعمدَ إلى الشُّخُوص معه، فقال لرجاء بن عبد العزيز- وكان على نفقاتِه: كم عند وكلائنا من المال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك، فغدا إليه، فقبّل يدَه- ومنصور بن زياد عندَه- فلمّا خرج رجاء قال لمنصور: قد ظننتُ أنَّ رجاء توهّم أنّا وهبنا له هذا المال، وإنما أمرناه بقبضه ليكون معنا فى هذا الوجه: فقال منصور: فأنا أعلِمُه ذلك. قال: إذن يقول: «فقل له: يقبّل يدى كما قبّلت يده»؛ فلا تقل له شيئًا وترك المال له.

وكان يحيى يقول: أسرِف فإن الشّرَف فى السرف.

* * *

ومنهم الفضل بن يحيى البرمكىّ، فإنه حدّثنا محمد بن علىّ بن عيسى بن ماهان، عن محمد بن زيد، أنّه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من الحمّام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلتُ: جُعلتُ فِداك! اشترِ هذا الوَجْهَ الحسنَ من النار، فدعا بخمسمائة ألف درهم، وقال: اشْتَرِ[٥] بها وجهى الساعة. فقلتُ جُعلت فداك! الوقت ضيّق، ولكن غدًا إن شاء الله، فقال: لا والله، إلاّ الساعة. فوجّهتُ إلى القضاة فى الجانبين بثلاثمائة ألف درهم، وحملت إلى أبى محمد

---

(١) ك: «بما يصير إليك».

(٢) ك: «وسيصل».

(٣) يريد تقبيل يد جعفر.

(٤) القاطول: نهر كان فى موضع سامراء، حفره الرشيد وبنى على فوهته قصرًا سماه أبا الجند لكثرة ما كان يسقى من الأرضين، وجعله لأرزاق الجند (مراصد الأطلاع).

(٥) ك: «استر».

السمرقنديّ منها صَدْرًا، وأمرتهم عنه بتفريقه، وفرّقتُ البقيّة بحضرتى، فلم تغب الشمسُ حتى فرّق ذلك كلّه.

* * *

وحدّث محمد بن الحسين بن مصعب، قال: وقَفَ الفضلُ بن يحيى بخُراسَان موقِفًا لم يَقفْه أحَدٌ قطّ، خرج إلى الميدان ليَضرِب بالصَّوالج، فأمر بدفاتر البقايا التى على النّاس فأحضرتْ، وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس، وإعلامِهم[١] أنّه قد وهبها لهم. ثم أمر بها فضُربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم.

* * *

وحدَّث بعض الهاشميين عن خلَف المصرىّ قال: مررتُ يومًا بباب يحيى بن مُعاذ، فوجدته مغلَقًا ولم أر بالباب أحدًا، فأنكرتُ ذلك، فدنوتُ إلى الباب واستفتحتُ، فَفُتِح لى، ودخلتُ عليه، وسألتُه عن حاله، فذكر أنّه توارَى عن غرمائه، فقلت: وكم لدُيَّانِك عليك؟ فقال: ثلاثمائة ألف درهم، ثم مضيتُ إلى الفضل بن يحيى فأخبرتُه، فسكَت، فلمّا انصرفتُ إلى منزلى كتب إلىّ: إنّك دلَلْتنا على مَكرمةٌ، فشكَرْناك[٢] على ذلك، وأمرنا لك بمائة ألف درهم لدلالتِك، وبعثْنا إليك بثلاثمائة ألف درهم؛ لتُوصلها إلى يحيى بن معاذ.

فأوصلتها إليه، فقضى دَيْنه بها.

* * *

قيل: ودفع حمزةُ بن جعفر بن سليمان إلى أبى النّضير الشاعِرِ رُقعةً ليُوصلَها إلى الفضل؛ يسأله فيها الإذن له فى ابتياع ضَيْعة بفارس، وكان مبلغ ما يُوزَن فى ثمنها مائة ألف درهم. قال أبو النّضير: فأخذتُها منه، فدفعتها إلى الفضل، فنظر ووضَعَها فاغتممتُ لما رأيتُ من قِلّةِ نشاطِه لها؛ فلمّا أصبحت قيل لى: خزّان بيت المال يطلبونك، فظننتُ أنه نظر لى بشىء فى خاصتى، فأتيتهم، فقالوا لى: أحضِر مَنْ يَحْمل المائة الألف إلى صاحب الرُّقعة، فحملتُها إلى حمزة، قال حمزة: فصرتُ إليه، فقلت له: أصلح الله الأمير! وصلَتْ إلىّ صِلَتُك، ولا والله ما أدرى كيف أشكُرك إلّا بقول أبى النضير فيك:

وللنـاسِ مَعْروفٌ وفيهم صَنـائـعٌ ... ولَنْ يجبر الأحْزَان إلّا جَدَا الفَضْلِ
إذا ما العَطايـا لم تكن بَرْمَكِيّـةً ... فتلْكَ العَـطايَا مـا تُمِرُّ ومـا تُحْـلِى

قال أبو النَّضِير: فالتفت إلىّ الفضل فقال: يا أبا النّضير، جزاؤك عندى.

فوَصَلَنى حتى أغنانى.

* * *

---

(١) ك: «وأعلمهم».

(٢) ل: «فشكرت لك دلك».

وحدَّث أحمدُ بن علىّ السَّيْفىّ[١] وغيره ممن ينزل بنهر المهدىّ، قال: أقبل الفضلُ بُن يحيى يومًا على نهر المهدىّ يريد منزله بباب الشمَّاسيّة[٢]، فاستقبله فتىً من الأبناء قد أُملِكَ[٣]، ومعه جماعة كثيرة قد ركبوا معه فى السّواد والسيوف - وهكذا كانوا يفعلون، يركبون مع الرجل عند إملاكه، ويستعيرون الدوابّ ويسيرون خلفَه ويطرّقون بين يديه - قال: فترجّل الفتى للفضل وقبّل يدَه ورِجْلَه. فسأله عن شأنه، فأخبره فقال: كم أصدقتَ[٤] أهلَك؟ قال: أربعَة آلاف درهم، فدعا قهرمانه وقال: أحملْ إليه السّاعة أربعة آلاف درهم لصداقِ أهله، وأربعة آلاف درهم لشراء منزلٍ ينزله، وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله، وأربعة آلاف درهم للنفقة على الوليمة وأربعة آلاف درهم ليتصرّف بها فى معيشته.

قال أحمد بن علىّ: فأشاروا على الفتى أن يسأله أن يأمرَ قُوَّاده وحَشَمه بإتيانه، فأمرهم بذلك، فأتوه، وجعلوا يَطرحون العشرة الآلاف الدّرهم والخمسة الآلاف الدّرهم والأقلَّ والأكثرَ فى مجلسه، حتى اجتمع له خمسون ألف درهم سوى ما أعطاه الفضل.

* * *

وحدّث أحمد بن علىّ، قال: حدّثنا رجل من جيراننا أنّ الفضل بنَ يحيى مرّ فى يوم صائف[٥] منصرفًا من المدينة، يريد منزله، فقال الرجل: لا والله إنّ[٦] فى منزلى قليل ولا كثير، فعَطِس الفضل فقلت: يرحَمُك الله! وقد كان سمع يمينى، فأمر بعض غلمانِه أن يَحمِلنى معه على دابّته فلمّا صار بى إلى قصره أخرج إلىّ خمسة آلاف درهم، وعشرةَ أثواب، فانصرفتُ بها إلى منزلى، فقالت لى امرأتى: والله لقد خرجت من عندنا وما [٦]تملك قليلًا ولا كثيرًا، فمن أين سرقتَ هذا؟ قال: فأعلمتُها القصّة، فلم تصدِّق قولى، واستراب الجيران بحالى، وتناهَى الخبرُ إلى السّلطان، فَطُمِع فىّ، وأخذنى فحبسنى، فقلتُ له: إنّه كان من أمرى كيت وكيت، فوقع خبرى إلى الفضل، فأمر بإحضارى فلما أحضِرت ورآنى عَرَفَنى، وأمر بإطلاقى ووَصَلنى بخمسة آلاف أخرى، وبعشرة أثواب، وقال: تَعَهّدْنا نَنْفَعْك.

فلم يَزَلَ يَنفَعه[٧] حتى حَدثَ من أمرِهم ما حَدَث.

* * *

وعن أحمد بن محمد بن عبد الصمد، أنّ رجلًا كان ينزل على نهر المهدىّ، وكانت عليه نعمة فزالتْ، فلم يقدر على شىء، فَمُطِر الناس ثلاثة أيام متتابعة، فبقىَ فى منزله لا يقدر على الخروج،

(١) كذا فى ك، والسيفى: بفتح السين، نسبه إلى سيف اسم رجل، وقد اشتهر بها كثيرون. وفى ل: «الشيقى» وانظر اللباب لابن الأثير.

(٢) الشماسية، بفتح أوله وتشديد ثانيه: صحراء كانت فى أعلى بغداد ينسب إليها باب من أبوابها مراصد الاصلاع ٢: ٨١٠.

(٣) أملك، أى تزوج.

(٤) أصدق الرجل المرأة، أى سمى لها صداقا.

(٥) يوم صائف أى حار.

(٦) ك: «ما» وما وإن هنا نافيتان.

(٧) ك: «ينفعنى».

فأضرّ به ذلك، وبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلمّا كان فى آخر الليل، جاء إلى البقّال[١] بقَصْعة له ليرهنها عنده على خبز، فانتَهره البقّال وقال: ما أصنع بهذه القَصْعة! وأبى أن يعطيَه عليها شيئًا.

قال: فعاد إلى منزله مغمومًا لا حيلة له، فرفع يدَه إلى السماء وقال: اللهمّ سُقْ إلىّ فى هذه الليلة عبدًا من عبادك تحبُّه، يُفرِّج عنّى ما أمسيتُ فيه! فما شعرتُ إلّا والباب يدقّ علىّ، فإذا رجل على حمار قد حَفّ به خَدَمُ، فقال لى: كم عيالُك؟ قلت: كذا وكذا، فأعطانى كيسًا قدّرت أن فيه خمسة آلاف درهم، فقلتُ: الحمد لله الذى استجاب دعائى، وفرّج عنّى. فقال لى: وما كان قولُك ودعاؤك؟ فخبّرته الخبر بصنيع البقّال وما دعوتُ الله جلّ وعزّ به، فاستحلَفنى أنى دعوتُ بهذا الدعاء! فحلفتُ له، فأمر لى بمائة ألف درهم فسألت بعض أولئك الخَدَم عنه لأعلم: هل يقدر على ما أمر لى به أم لا! فقال: هو الفضل بنُ يحيى بن خالد البرمكىّ، فسكنتُ إلى ذلك[٢]، وانصرفت إلى منزلى ومضيت إلى قهرمانه لمّا أصبحتُ، فقبضتُ منه المال.

* * *

وحدّث خلف بن عمرَ المصرىّ، قال: كنّا عند الفضل ذات ليلة[٣] فقال: أتعرفون رجلًا كانت عليه نعمةٌ فزالت عنه حتّى أردّها عليه! فقال الأشعرىّ - وكان قاضيًا: أعرفُ أصلحَك الله رجلًا شريفًا من آل خالد بن عبد الله القَسْرىّ بالكوفة؛ قد أضرَّت به الحاجة - وسمّاه له - فكتب إلى عامل الكوفة: أحْمِل إلىّ فلانًا على البريد، فقد بعثت بجَوازِه، فلم يعلم الخالدىّ حتى حمله العاملُ على البريد ووجّهه إليه، فلما قدم عليه دعاه وسأله عن حاله، وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقِمْ بها مُروءتك حتى أنظر فى أمرك، وأدبِّرَ لك ما يُصْلِحُ[٤] حالك، ثم ولّاه كَرْمان، فصار إليها، وحَسُنت حالُه[٥].

ثم إن كتاب صاحب البريد بها ورد على الفضل بن يحيى بوَفاة الكوفىّ، فقال لنا: أتدرون ما قال الفارسىّ فى مَثَل له، فذكر[٦] المَثَل بالفارسيّة، ثم فسّره بالعربية، فقال: إلى أن يُدرك الحشيش قد مات الحمار؛ أردت بهذا الرجل الغِنَى، فمات قبل ذلك.

واغتمّ لوفاته، ولما فاته من الإحسان إليه بعد الّذى قد كان أعطاه وأكسَبَه من مرافق العمل الّذى ولّاه، وتقدّم بحَمْل جميع ما خلّفه إلى أهله فحمل إليهم[٧].

وحدّثنا أبو طالب الجعفرىّ قال: حدّثنى سليمانُ بن أبى جعفر، أنّ محمد بنَ إبراهيم الإمام، ركب إلى الفضل بن يحيى يومًا، وكان قد ركِبَه دين، وحمل حُقه[٨] فيها جوهر، فلما وصل إليه قال: قد لَزمنى دين أحوَجَنى إلى احتيال ألف ألف درهم، وعلمتُ أن التّجار لا يَسْمَحون بإخراج مِثلِها،

---

(١) البقال: «بائع البقول».
(٢) ك: «لذلك».
(٣) ك: «يوم».
(٤) ك: «ما تصلح به حالك».
(٥) ك: «أحواله».
(٦) ك: «ثم ذكر».
(٧) ك: «فحمله».
(٨) الحقة: دعاء من خشب وقد تسوى من العاج.

وإن وثّقنا الرهن، ولك مُعامِلون، وتجّار مطيعون، ومعى رَهْن، فإن رأيت أن تأمرَ بِقَبْضه، وحَمل هذا المال إلينا، فأنت أولى بذلك! فقال الفضل: نعم لنا تجار يطيعوننا، ويسارعون إلى أمرنا، ولكن ما هذا الرَّهْن؟ فوضع الحُقّة بين يديه، ففتحها حتى نظر إليها، فأُعجِب بالجَوْهر الَّذى فيها، ثم أمر بإعادتها إلى حالها وقال: ضع خاتَمك عليها؛ فَخَتمها.

قال: فقال الفضل: إنّ نُجْحَ الحاجة أن تقيم فى منزلى الذى أنا فيه. فقال: يشقّ علىّ المُقام. فقال: وما يشقّ عليك! إن رأيت أن تلبسَ من ثيابنا شيئًا دعوت لك به، وإلاّ فابعث إلى منزلك لتؤتَى به. فأقام عنده ونهض الفضل فدعا وكيله، وأمر أن يحمل إلى منزل محمد بن إبراهيم ألف ألف درهم مبدَّرة، ويضعها قبالَةَ مجلسه ليراها إذا دخل، ففعل الوكيل ذلك، وانصرف محمدٌ إلى منزله مع المغرب، فلما دخل وقعتْ عينُه على المال، فقال: ما هذا؟ قالوا: وجّه به الفضل، قال: أحسن الله جزاءه! فإنه وإن كان وجّه بذلك على ما رهنّاه[1] فقد ظهر لنا من عنايته ما قدّرناه فيه، قالوا: وما الرهن؟ قال: الحُقّة، قالوا: ردَّها بختْمِك[2]، فقال: أين هى؟ فأُتى بالحُقّة ففتَحها حتّى نظر إليها وفرح فرحًا شديدًا. فغدا إلى الفضل فوجَده قد سبقه إلى دار أمير المؤمنين فتبعه، فلم يزل واقفًا ينتظره حتى خرج الفضلُ من بابٍ آخر، فصار إلى منزله وشكرَ له ما كان منه، وانصرف عنه، فلمّا دخل منزله وجد فيه ألف ألف درهم سوى الأولى، فقال: ما هذا؟ قالوا: بعث به الفضل فأتاه، فقال له: جُعلت فِداك! أما كان فيما وجّهت به أمسِ كفاية؛ حتى أردفتَهُ بمثله! فقال: إنّه والله طالت علىّ ليلتى فركبت إلى أمير المؤمنين، وأعلمته حالَك، فأمرنى بالتقدير لك، فقدّرتُ مائة ألف دينار؛ فمازال يقول ويماكِسُنى حتّى وقفتُ على ألف ألف، فأمر لك بها، فلما انصرف إلى المنزل حتى حملَ المال إليك. فقال محمد: لستُ أجدُ لك شكرًا أقضى به حقَّك، غير أنَّه علىّ من الأيمان المغلّظة إنْ وقفتُ بباب أحد سواكَ أبدًا حتى ألقَى الله جلّ وعزّ، ولا أسأل أحدًا حاجةً – ما بقيتُ – سواك.

فكان لا يركب إلى أحدٍ سوى الفضل، ولا يقفُ بباب أحدٍ غيره.

* * *

ومن كرمِهِ ما حُدّثَ به المأمون – فكبرُ عندَه واستحسنه، وعجب من جُوده وسَعَة صدره – فإنّه بلَغنا عن عمرو بن مَسعَدة قال: رفعت قصة إلى المأمون منسوبةٌ إلى محمد بن عبد الله؛ يمّتّ فيها بحرمة، ويزعم أنّه من أهلِ النِّعمة والقَدْر، وأنّه مولًى ليحيى بن خالد، وأنّه كان ذا ضَيْعة واسعة، ونعمة جليلة، وأنّ ضِياعه قُبضت فيما قُبِض للبرامكة، وزالت نعمتُه بحلول النِّقمة عليهم. فدفَعَها المأمون إلى ابن أبى خالد، وأمَرَه أن يضُمَّ الرجلَ إلى نفسه، وأن يُجرِىَ عليه، ويُحسِن إليه. ففعل ذلك به وصلَحت حالُه[3]، وتراجع أمرُه، وصار نديمًا لابن أبى خالد لا يفارقه. فتأخّر عنه ذات يوم لمولودٍ ولِدَ له، فبعث إليه، فاحتجَب عنه، فغضِب عليه ابنُ أبى خالد، وأمر بحبسه وتقييده وإلباسه جُبَّةَ صوف، فمكث كذلك أيّامًا، فسأله المأمون عنه، فقصّ عليه قصَّته، وعظّم عليه جُرمَه؛ وشكا

---

(١) ك: «أرهناه».

(٢) ل: «تحت خاتمك»: وما أثبته من ك.

(٣) ك: «أحواله».

ما يراه عليه من التِّيه والصَّلَف والافتخار بالبرامكة، والسموِّ بآبائهم. فأمر بإحضاره، فأحْضر فى صوفِهِ، فأقبل عليه المأمون بالتوبيخ، مصغِّرًا لقدْره، مُسَفِّهًا لرأيه، وعظَّم فى عينه إحسان ابن أبى خالد إليه؛ مع طَعْن على البرامكة ووضْعٍ منهم، فأطْنَبَ فى ذلك.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين، لقد صَغَّرْتَ من البرامكة غير مصغَّر، ووضعت منهم غير موضوع، وذممتَ منهم غيرَ مذموم؛ ولقد كانوا سقاءَ أسقامِ دهرِهم، وغياثَ إجدابِ عصرِهم، كانوا مَفزَعًا للملهوفين، وملجأً للمظلومين. وإن أذن لى أمير المؤمنين حدَّثْته بعض أخبارهم. ليستدلَّ بذلك على صدق قولى فيهم، ويقفَ على جميل أخلاقهم، ومحمود مذاهبهم فى عصرهم؛ والأفعال الشريفة والأيادى النَّفيسة. قال: هات. قال: ليس بإنصاف! محدِّثٌ مُقَيَّد فى جُبَّة صوف! فأمر فأخذ قيْده، فقال: يا أمير المؤمنين، ألمُ الجبّة يحول بينى وبين الحديث، فأمر فَخُلِعَ عليه، ثم قال: هات حديثَك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان وَلائى وانقطاعى إلى الفضل. فقال لى الفضل يومًا بمحضَر من أبيه وأخيه جعفر: ويحك يا محمد! إنّى أحبُّ أن تدعوَنى دعوةً كما يدعو الصديق صديقَه، والخليل خليلَه. فقلتُ جُعلتُ فِداك! شأنى أصغر من ذلك، ومالى يَعجزُ عنه، وباعى يَقصرُ عن ذلك، وداري تَضيقُ عنه، ومُنَّتى لا تقوم له، قال: دعْ عنك ذلك، فلابدّ منه. فأعدتُ عليه الاستعفاء؛ فرأيتهُ جادًّا فى ذلك مقيما عليه، وسألاه ذلك، وأعلَماه قصورَ يدى من بلوغ ما يجب ويشبِه مثله، فقال لهما: لست بقانع منه دون أن يدعُوَنى وإيَّاكما، لا رابع معنا.

فأقبل علىَّ يحيى وقال: قد أبى أن يُعفِيَك، وإذْ لم يكن غيرنا، فأقْعِدْنا على أثاث بيتك فلا حِشْمةَ منّا، وأطعِمْنا من طبيخ أهلك، فنحن به راضون، وعليه شاكرون. فقلت: جُعلتُ فداك! إن كنت قد عرضت على ذلك وأبيت إلاَّ هَتْكى وفضيحتى؛ فلاأقل أن تؤجلنى حتى أتأهَّب؛ فقال: أستأجل لنفسك. فقلت: سنة؛ فقال: ويحك! أمعنا أمان من الموت إلى سنة! فقال يحيى: أفرطت فى الأجل، ولكنى أحكم بينكما بما أرجو ألاَّ يردَّه أبوالعباس، وأقبله أنت أيضًا. فقلت: احكم -وفقك الله للصواب- وتفضَّلْ علىَّ بالاستظهار والفسخ فى المدَّة فقال: قد حكمت بشهرين.

فخرجتُ من عندهم. وبدأت برمِّ دارى، وإصلاح آلتى، وشراء ما أتجمَّل به من فرش وأثاث وغير ذلك، وهو فى ذلك لايزال يذكّرنى، ويعدُّ الأيام علىَّ؛ حتى إذا كانت الجمعة التى تجب فيها الدعوة قال لى: يا محمد، قد قرُب الوقت، ولا أحسبهُ بقِىَ عليك إلاّ الطعام. قلت: أجل يا سيِّدى، فأمرت باتّخاذ الطعام على غاية ما انبسطَتْ به يدى ومقدرتى، وجاءَنى رسولُه عشيّة اليوم الذى فى صبيحته الدعوة، فقال لى: إلى أيْن بلغت؟ وهل تأذن بالركوب؟ قلت: نعم؛ بكَر. فبكّر هو ويحيى وجعفر، ومعهم أولادُهم وفِتْيانُهم، فلما دخلوا أقبل علىّ الفضل وقال: يا محمد، إنّ أوّل ما أبدأ به النّظر إلى نعمتك كلِّها صغيرها وكبيرها، فقم بنا إليها حتى أدورَ فيها وأقفَ عليها، فقمتُ معه، وطاف فى المجلس، ثم خرج إلى الخزائن وصار إلى بيوت الشراب، وخرج فى الاصطبلات، ونظر إلى صغير نعمتى وكبيرها، ثم عَدَل إلى المطبخ فأمر بكشف القُدُور كلِّها، وأبصَرَ قِدْرًا منها فأقبل على أبيه وقال: هذا قِدْرك الذى يُعجبك، ولست أبرَحُ دونَ أن تأكل منه. ثم كره أن يأكل

فيثلم عليّ في أكله، ويفسد طعامه، فدعا برغيف فغَمَسه في القِدْر، وناولَ أباه، ثم فعل ذلك بأخيه، ودعا بِخلّال وخرج إلى الدار، ووقفَ في صَحْنِها مفَنِّنًا طَرْفَه في فنائها وبنائها وسُقوفها وأرْوقتها، ثم أقبل عليّ وقال: مَنْ جيرانُك؟ قلتُ: جعلتُ فداك! عن يميني فلان ابن فلان التاجر، وعن شمالي فلان ابن فلان الكاتب، وفي ظهر داري رجلٌ بنى برجًا كبيرًا، فهو في بنائه لا يفْتُرُ ولا يقصِّر، فقال لي: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: كان ينبغي لك في قَدْرِك ومَحَلِّك من هذه الدولة ألا يجترئ أحد أن يشتري شيئًا في جوارك إلاَّ بأمرك لا سيَّما إذا كان ملاصقًا لك، ولا ترضى لنفسك إلاَّ بجارٍ تعرِفه، فقلتُ: لم يمنعني من ذلك إلاَّ ما كنتُ فيه من الشُّغْل بهذه الدعوة المباركة! فقال لي: فأينَ الحائط الذي يتصل بداره؟ فأومأت إليه، فقال: عليّ بنجّار، فأتى به، فقال: افتح هاهنا بابًا، فأقبل عليه أبوه وقال: نشدتُك الله يا بُنيّ ألاَّ تهجُم على قوم لا تعرف لهم سببًا! وأقبَلَ عليه أخوه بمثل ذلك، فامتنع دون فتح الباب، فلما رأيته قد ردّ أباه وأخاه، أمسكت عن مسألته، ففَتح البابَ ودخلَ وأدخَلَني معه، فدخَلْتُ دارًا حارَ بصري فيها من حُسْنِهَا، كلّها لؤلؤ يُعشِي العيون، فانتهى إلى رواق فيه مائة مملوك في قَدٍّ واحد، وزيٍّ واحد، عليهم أقبية الدِّيباج المنسوجة، والمناطق المُذَهَّبة. فلما نظروا إلى الفضل عَدَوْا ووقفوا بين يديه، وإذا شيخٌ بهيّ قد خرج من بعض تلك المجالس، فقبّل يَده، فقال: مرّ بنا ننظر في مرافق هذه الدار، فما دخلت مجلسًا من مجالسه إلاّ وقد أفرغ تحشيته بالفرش الذي لا يحيط به الوصف وكذلك مَرافقها من السُّتور والبسُط، وغير ذلك.

ثم قال للشيخ: مُرّ بنا إلى عند الدوابّ، فدخلنا اصطبلاً فيه أربعمائة رأس من الدوابّ والبغال وغيرها، فوجدتُ ذلك الاصطبَل أحسنَ بناءً من داري. ثم خرج نحو دور النساء - والشّيخُ بين يديه - فلما انتهى إلى الباب، وقف الشيخُ ودخل الفضل، وجذبَني إلى نفسه وأنا معه؛ حتى دخلتُ بعضَ تلك الدُّور، فإذا فيها مائة وصيفة كأنهنّ الأقمار؛ قد أقبلن في حُليِّهنّ وحُلَلِهنّ، فوقفن بين يديه، فقال: يا محمد، هذه الدار أجلّ أم دارك؟ فقلت: يا سيّدي، وما أنا، وما داري! هذه تصلح للأمير لا غيره - على تحرُّج منّي في قولي. فقال: يا محمد، هذه الدار بما فيها من الدوابّ والرقيق والفُرُش والأواني لك، ولك عندي زيادةٌ! فقلتُ في نفسي: يهب لي مِلكَ غيره! فعلم ما في نفسي، فقال: يا محمد، إني لَمّا سألتُك هذه الدعوة تقدّمت إلى هذا القهرمان بشراء البراح[1]، وأن يعجّل الفراغ منه ومن بنائه، وحوّلت إليها ما ترى، فبارك الله لك فيها!

وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحدَّثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفرًا قد أُمعِض[2] من ذلك، وتغيّر وجهُه تغيُّرًا عرفتُه، ثم أقبل على بيه يشكو الفضل ويقول: يتفَردّ بمثل هذه المكرمة من دوني! فلو شاركني فيها لكانت يدًا أشكرها منه. فقال: يا أخي بقي لك منها قُطْبها قال: وما هو؟ قال: إنّ مولانا هذا لا يتهيّأ له ضبطُ هذه الدار بما فيها إلاّ بدخْلٍ جليل، فأَعْطِه ذلك، فقال: فرّجتَ عنّي يا أخي، فرّج الله عنك! فدعا من وقته بصِكاك لخمس قُرَيّات واحتمل عن خراجَها، فخرج عنّي وأنا أيسرُ أهلِ زماني! فهل تلومني يا أميرَ المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم! فقال

---

(١) البراح: المكان الفضاء. (٢) أمعض: أغضب.

المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم.

وتقدّم إلى ابن أبى خالد برد مرتبته وتصييره فى جملة خواصّه.

* * *

وحدّثنا غيره قال: اصطحب رسولٌ للفضل ورجلٌ كوفىّ فى طريق خراسان، فأقبل الكوفىّ يسأل عن أفعال الفضل، فأخبره بإنهابه الأموالَ الجليلة فى العطايا، فقال له الكوفىّ: خبِّرنى عن هذه الأموال التى يهبها؛ يراها وينظر إليها؟ فقال: لا، قال: فمن هناك تَهُون عليه، فلما وصلا إلى الموضع دعا الفضلُ بالرسول، وسأله عمّا رأى فى طريقه وعمّا سمع، فأقبل يخبره حتى انتهى إلى خبر الكوفىّ، فذكر له ما قال – وكان متّكئًا فاستوى جالسًا، ثم قال: يا غلام ائت صاحب بيت المال، فاسأله عن حاصله، فقال: هو: عشرة آلاف، فقال: تحمل الساعة إلى دار العامّة، وتشق عنها البِدَر شقًّا، وتنثر فى وسط الدار. قال: ففعل ذلك بها. ثم قال للرسول: هاتِ صاحبَك الكوفىّ، فأتى به، وأمر الفضلُ بتفريق ذلك المال على زُوّاره رجلًا رجلًا، واسمًا اسمًا على مقاديرهم. وما وقع لكلّ رجل منهم. ثم أمر للكوفىّ بمائة ألف درهم، وقال: هذه لك؛ لتنبيهك إيّاى على هذا الفعل.

* * *

ومما قيل فى ذلك:(١)

كـريمُ كـريمُ الأمّهـاتِ مُهـذّبُ ... تحلّبَ كفّـاه النـدَى وأنـامِلُهْ
هو البحرُ من أىّ النواحى أتيتَهُ ... فَلُجّتُـهُ المَعـروفُ والجـودُ سَاحِلُهْ
جَوادٌ إذا ما جئتَ للعُرْفِ طالبًا ... حَباكَ بما تحوى عليه أنـامِلُهْ
ولو لم يكن فى كفِّهِ غيرُ رُوحِهِ ... لجـادَ بهـا فليتّـق الله سَـائِلُهْ

[الطويل]

وللبحترىّ فى ذلك:

لـو أنّ كَـفّـكَ لم تجُـدْ لِمُـؤَمِّـلٍ ... لكفـاهُ عـارضُ وَجْهِـكَ المُتَـهلّلِ(٢)
أو أنّ مجـدَك لم يـكـن مـتـقـادمًـا ... أغـنـاكَ آخـرُ سـؤدُدٍ عَـنْ أوّلِ

[الكامل]

* * *

علىّ بن يحيى النديم، قال: دعانى المتوكّلُ ذات يوم وهو مخمور، قال: أنشِدْنى قولَ عُمَارة(٣) فى أهل بغداد، فأنشدته:

مَنْ يشْتـرِى مِنّى مُـلوكَ المخـرّمِ ... أبـغ حسَنًـا وابنىْ هِشـامٍ بـدِرهَم(٤)

(١) لأبى تمام، ديوانه ٣: ٢٩، مع اختلاف فى الرواية.

(٢) ديوانه ٢: ١٨٠.

(٣) نسبها ياقوت فى معجم البلدان ٧: ٤٠٩ إلى دعبل وقال: يهجو الحسن بن رجاء وابنى هشام: أحمد وعليا، ودينار بن عبد الله ويحيى بن أكثم، وهؤلاء كانوا يسكنون «المخرّم».

(٤) المخرّم: محلة ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى.

وأُعْطِي رَجاءً بعد ذاكَ زيادة   وأمنحُ دينارًا بغير تندُّم
وإن طلبوا منى الزّيادةَ زِدْتُهم   أبَادُلفٍ والمستطيلَ ابنَ أكثم(١)
[الطويل]

فقال المتوكل: ويلي على ابن البوال على عقبيه! يهجو شقيق دولة بنى العباس! قلت: يا سيّدى، مَنْ شقيق دولة بنى العباس؟ فقال: القاسم بن عيسى، فهل عندك من مديحه شيء؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قول الأعرابىّ الذى يقول:

أبادلَفٍ إنّ السماحة لم تَزَلْ   مُغَلَّلَةً تشكو إلى الله غُلّها
فبشَّرها رَبِّى ببلادِ قاسمٍ   فأرسلَ جبريلاً إليها فحلّها(٢)
[الطويل]

ولبكر بن النطّاح فى أبى دُلَف:

بَطَلٌ بصدرِ حُسَامِهِ وسِنانِهِ   أجَلانِ من صَدَرٍ ومن إيرادِ(٣)
وَرِثَ المكارِمَ وابْتَنَاها قاسمٌ   بصفائحٍ وأسنَّةٍ وجيادِ
يا عصمةَ العرَبِ التى لو لم تكنْ   حَيًّا إذًا كانت بغير عِمادِ
إنّ العيون إذا رأتْكَ حِدَادُها   رَجعتْ من الإجلالِ غيرَ حِدادِ
وإذا رَمَيْتَ الثغرَ منك بعَزْمةٍ   فتّحتَ منهُ مواضِعَ الأسْدَادِ
وكأنّ رُمحَكَ مُنْقَعٌ فى عُصفُرٍ   وكأن سَيْفَكَ سُلَّ من فِرْصادِ(٤)
لوْ صَالَ من غضبٍ أبو دُلَفٍ على   بِيض السّيوف لَذُبْنَ فى الأغمادِ
أذْكَى ونورَ للعداوَةِ والهوى   نارَين: نارَ دمٍ ونارَ رمادِ(٥)
[الكامل]

وقال أبو هفّان: أنشدتُه عبد العزيز بن أبى دُلَف بسرَّ من رأى، فبَرَّنى ثم قال: هل خُلق مِثلُه؟ قلت: لا.

* * *

ولغيره فى أبى دُلَفٍ:

ولو يَجوزُ لقالَ الناس كلّهُمُ   لولا أبو دُلَفٍ ما أورقَ الشجرُ(٦)
قرْمٌ إذا ما حوَى فى كفِّهِ حَجَرًا   يفيضُ فى كفّهِ من جُودِهِ الحجرُ
[البسيط]

(١) رواية ياقوت للبيت:
فإن وُدَّ مِنْ عَيْبٍ عَلَىَّ جميعُهُمْ   فَلَيْسَ يَرُدّ العَيْبَ يحيى بن أكثم
(٢) المحاسن والأضداد ٨٤.
(٣) المحاسن والأضداد ٨٣.
(٤) الفرصاد: صبغ أحمر.
(٥) المحاسن والأضداد: «زناد».
(٦) المحاسن والأضداد ٨٤.

وأنشد أيضًا رحمه الله:

خِلٌّ إذا جئتَهُ يومًا لتسألَهُ ... أعطاكَ ما مَلَكَتْ كفّاه واعتذَرا[١]
يُخفِى صَنائعَه والله يُظهِرُها ... إنَّ الجميلَ إذا أخفيتَهُ ظَهَرَا

[البسيط]

وأنشد:

يَداك يدٌ غيثُها مُرْسَلٌ ... وأخرى لأعدائها غائظَهْ
فأمّا التى سيبُها يُرتجَى ... فأجْوَدُ بالمال من لافظَهْ
وأما التّى شرُّها يُتّقى ... فنفسُ العدُوِّ بها فائظَهْ

[المتقارب]

وقال آخر:

فتًى عاهدَ الرحمنَ فى بَذْلِ مالِه ... فليس تراه الدهرَ إلَّا على العَهدِ[٢]
فتى قَصُرَت آمالُه عن فِعالِه ... وليس على الحرّ الكريم سِوَى الجَهْدِ

[الطويل]

وقال آخر:

عادَ السُّرور إليك فى الأعياد ... وسعِدْتَ من دُنياكَ بالإسعادِ[٣]
رِفقًا بشكر جلّ ما أوليتَهْ ... رِفقًا فقد أثقلتَهُ بأيادى
مَلأ النفوسَ مهابَةً ومحبّةً ... بدْرٌ بدَا متغمِّرًا بسوادِ[٤]
ما إن أرى لكَ مُشبِهًا فيمن أرى ... أمُّ الكرامِ قليلةُ الأوْلادِ[٥]

[الكامل]

وقال آخر:

إذا ما أتاهُ السّائلونَ توَقَّدَتْ ... عليه مصابيحُ الطلاقةِ والبِشْرِ[٦]
له فى ذُرَا المعروفِ نُعْمَى كأنَّهَا ... مواقِعُ ماءِ المُزنِ فى البلدِ القَفْرِ

[الطويل]

---

(١) المحاسن والأضداد ٨٤، والرواية هناك: «حر إذا جئته»
(٢) المحاسن والأضداد ٨٥.
(٣) المحاسن والأضداد ٨٤.
(٤) كذا فى ك والمحاسن والأضداد، وفى ل: «متعمماً».
(٥) المحاسن والأضداد: * إن الكرامَ قليلةُ الأنداد *
(٦) المحاسن والأضداد ٨٥.

محاسِن صِلات الشعَراء

قيل: دخل جَريرٌ على عبد الملك بن مروانَ؛ وقد أوفده إليه الحجّاج بن يوسف، فدخل محمدُ بن الحجّاج، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ مادِحُك وشاعِرُك؛ فقال: بل مادِحُ الحجّاج وشاعرُه! فقال جرير: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لى فى إنشاده مدْحَةً! قال: هات. ابدأ بالحجّاج؛ قال: بل بك يا أميرَ المؤمنين؛ فقال: هات، ابدأ بالحجّاج، فأنشده:

صَبْرتَ النفسَ يَابْنَ أبى عَقِيلٍ ... مُحافظَةً فكيف ترى الثوابَا[1]
ولوْ لَمْ تُرْضِ ربَّكَ لم يُنزِّلْ ... مع النّصْر الملائكةَ الغِضابَا
إذا سعر الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رأى الحجّاجَ أثقَبَها شِهابًا

[الوافر]

فقال: صدقت! كذاك هو؛ ثم قال للأخْطل: قُمْ فهاتِ مديحًا؛ فقام فأنشد وأجاد وأبلغ، فقال: أنت شاعرُنا، وأنتَ مادحُنَا، قم فاركبْه، فألقى النّصرانىُّ ثوبَه، وقال: خِبَّ يا بن المَراغة! فساءَ ذلك من حضَر من مُضر، وقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إن النّصرانىّ لا يَركَب الحنيف المَسلِم، فاستحيا عبدُ الملك وقال: دَعْه.

قال جرير: فانصرفتُ أخزَى خلق الله، حتى إذا كان يوم الوداع دخلتُ لأودِّعه فأنشدته:

ألستم خيرَ مَنْ ركِبَ المطايَا ... وأندَى العالمين بطونَ راحِ![2]

[الوافر]

فقال: بلى، نحن كذلك، أعِدْ، فأعدتُ، وأسفَر لونُه، وذهب ما كان فى قلبه، فالتفت إلى محمد بن الحجّاج فقال: أترى أمّ حَزْرة يرويها مائة من الإبل؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن كانت من فرائض كلبٍ فلم تُروها، فلا أرواها الله!

فأمر لى بمائة من الإبل.

* * *

وحدّثنا المدائنى؛ عن كَيسانَ، عن الهيثم قال: حجّ عبدالملك بن مروان ومعه الفرزدق، فبيْنا هو قاعد بمكّة فى الحِجْر، إذ مرَّ به علىّ بنُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب، وعليه مُطْرَفُ خَزّ، فقال عبد الملك: من هذا يا فرزدق؟ فأنشأ يقول:

---

(١) ديوانه ١٧، من قصيدته التى مطلعها:
سَئِمْتُ من المواصَلَةِ العِتَابا ... وأمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشبابا

(٢) ديوان ٩٨.

هذا الّذى تَعرِفُ البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحلُّ والحَرمُ[١]
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
إذا رأتْهُ قريْشٌ قالَ قائلُها: ... إلى مكارِمِ هذا يَنْتَهى الكَرَمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانَ راحتِهِ ... رُكْنُ الحطيم إذا ما جاءَ يستلمُ
ينْمى إلى ذُرْوَةِ العزّ التى قَعَدَتْ ... عَنْ نَيْلِها عربُ الإسلام والعجمُ
مُشتقّةٌ منْ رسول الله نبْعَتُه ... طابَتْ عناصِرُهُ والخِيمُ والشيمُ
فى كفِّهِ خيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ ... منْ كفِّ أرْوَعَ فى عِرْنينه شَمَمُ
ينشقُّ نورُ الدجى عن نُور غُرّتِه ... كالشمس تنجابُ عَنْ إشراقها الظُّلَمُ
يُغضِى حياءً ويُغْضَى من مهابتِهِ ... فَما يكلَّمُ إلّا حينَ يبتسِمُ
من معْشَر حبُّهُمْ دِينٌ وبغضُهُمُ ... كُفْرٌ وقُرْبُهُمُ منْجًى ومعتصَمُ
يُستدفَعُ السوءُ والبلْوى بحُبِّهِمُ ... ويُستَرَبُّ به الإحسان والنّعَمُ
لا يستطيعُ جوادٌ بُعْد غايتهم ... ولا يُداينُهُمُ قومٌ وإن كَرمُوا
إنْ عُدّ أهلُ النّدى كانوا أئمتهمْ ... أوْقيلَ مَنْ خيرُ أهلِ الأرض قيل:هُمُ
مقدَّمٌ بعدَ ذكر الله ذكرُهُمُ ... فى كلّ برٍّ ومختومٌ به الكَلِمُ

[البسيط]

قال: فلما فرغ من شعره، قال له عبد الملك: أوَرافضىّ أنتَ يا فرزدق؟ فقال: إن كان حبُّ أهل البيْت رَفْضًا فنَعْم. فحَرَمَهُ عبد الملك جائزتَه، فتحمّل عليه بأهل بيته، فأبى أن يعطيَه، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبى طالب: ما كنتَ تؤمِّل أن يُعطيَك؟ قال: ألف دينار فى كلّ سنة. قال: فكم تؤمِّل أن تعيش؟ قال: أربعين سنة. قال: يا غلام، علىّ بالوكيل فدعاه إليه وقال: أعطِ الفرزدقَ أربعين ألفَ دينار: فقبضها منه.

* * *

قيل: ودخل الفرزدق على سُكَيْنَة بنتِ الحسين، فقالت له: منْ أشعر الناس؟ فقال: أنا، قالت: كذبتَ! أشعَرُ منك الذى يقول[٢]:

بنَفْسى مَنْ تجنّبُهُ عَزيزٌ ... علىّ ومَنْ زيارتُهُ لِمامُ
ومَن أمسِى وأصبحُ لا أراهُ ... ويَطْرُقنى إذا هَجَع النيامُ

[الوافر]

فقال: أما والله لئن تركتَنى لأسمعنّك ما هو أحسن منه. فقالت: أخرجوه عنّى،اثم عادَ من الغَد. فقالت: مَنْ أشْعَر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبتَ، أشعر منك الذى يقول:

---

(١) أبيات منها فى الأغانى ١٥: ٣٢٧ (طبعة دار الكتب) وقال: «ومن الناس من يروى هذه الأبيات لداود بن مسلم فى قثم بن العباس، ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد معه.. والصحيح أنها للحزين الكنانى.

(٢) الخبر فى الأغانى ٧ : ٥٠ (ساسى)، وفيه: «أشعر منك جرير الذى يقول»، والبيتان فى ديوانه ٥١٢.

يـا بيتَ عـاتكــة الّــذى أتعــزّلُ   حَـذَرَ العِـدَا وبـه الفؤادُ مـوكَّـلُ(١)
إنّى لأمــنَـحُــك الــصُّـــدُودَ وإنـنى   قسـمًا إليـكَ مـع الصدودِ لَأَمْيَـلُ
[الكامل]

فقال: أما والله لئن تركتِنى لأسمعنّكِ أحسن منه، فقالت: أخرجوه عنّى. ثم عاد من الغد وعندَها جَوارٍ كالتماثيل، فأخذت جاريةٌ منْهنَّ بقلبه، فقالت سُكينة: من أشعَرُ الناس؟ قال أنا؛ قالت: كذبْتَ! أشعر منك الذى يقول:

إنّ العيونَ الّتى فى طَرْفِها حَوَرٌ   قتلْننا ثم لَمْ يُحيينَ قَتْلَانَا(٢)
[البسيط]

فقال: يا بنتَ رسول الله، إن لى حقًّا بإقبالى عليك من مَكّة، ولا أراك تَدَعِينَنى أسمِعُك شِعْرِى، ولا تريدينِى على التكذيب، مع أنى لأخاف لما بى أنّى لا أبرح إلاّ مَيّتًا، ولى حاجة! قالت: فما هى؟ قال: إن أنا متُّ تأمرين بتكفينى فى ثياب هذه - وأشار إلى الجارية - فقالت: هى لك، وضمّت إليها جائزةً وكسوة.

* * *

وعن أبى الزِّناد، قال: اجتمع جرير والفرزدق وجميل وكثيّر ونُصَيب فى منزل سُكينة بنتِ الحسين، فخرجت جاريةٌ ومعها قِرطاس وقالت: أيّكم الفرزدق؟ فقال: هٰأنذا! قالت: أنت الذى تقول:

أبيتُ أمنّى النفسَ أنْ سوفَ نَلتَقى   وهل هو مقدورٌ لنفْسى لِقاؤها(٣)
فإنْ أَلْقَها أو يجمَعِ الدَّهْرِ بَيْنَنَا   ففيها شفاءُ النَّفْسِ منْهَا وداؤها
[الطويل]

قال: نعم. قالت: قولُك أحسَنُ من مَنْظَرِك، وأنت القائل:
ودَّعْـنَـنى بــإشَـارَةٍ وتَحِيَّـــةٍ   وَتَـرَكْنَنى بين الـدّيـار قَتيـلا
لم أستطِعْ رَدَّ الجواب عليهمُ   عند الوَداع وَمَا شَفَيْنَ غليلا
لو كنت أَمْلِكُهُم إذن لم يبْرَحوا   حتىّ أودِّعَ قَلْبِـىَ المخبــولاَ
[الكامل]

قال: نعم. قالت: أحسنْتَ أحسن الله إليك! وأنت القائل:
همــا دَلّتـانى مِنْ ثمــانــينَ قــامــةً   كما انقضّ بازٌ أقتمُ الرِّيش كاسرُهْ(٤)

---

(١) للأحوص، الأغانى ١٨: ١٩٥ (ساسى).
(٢) لجرير، ديوانه ٥٩٥.
(٣) ديوانه ١: ٧ مع اختلاف فى الرواية.
(٤) ديوانه ١: ٢٥٩ مع اختلاف فى الرواية.

فلمّا استوتْ رِجْلاى فى الأرض نادَتا: أحيٌّ فيرْجَى أم قتيلٌ نحاذِرُه[١]
فقلتُ ارفعوا الأسباب لايَشْعر وابنا وولّيْتُ فى أعجاز ليلٍ أبادرُه
أحاذِرُ بوّابين قد وُكّلا بها وأحمرَ من ساجٍ تبصُّ مسامرُه[٢]
فأصبحتُ فى القوم القعودِ وأصبحتْ مغلّقةً دونى عليها دَسَاكرُه[٣]
[الطويل]

قال: نعم، قالت: سوْءةً لك؛ قضيتَ حاجتَك فأقشيت عليها وعلى نفسك! فضرب بيده على جبْهته؛ وقال: نعم. فسوأةً لى!

ثم دخلتْ وخرجتْ وقالت: أيّكم جرير؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت القائل:

رُزِقنا به الصَّيْدَ الغزيرَ ولم نكُن كمن نبلُهُ محرومَةٌ وحبائله[٤]
فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ ومَنْ به وهيهاتَ حيٌّ بالعقيق نُواصلُه![٥]
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك! وأنت القائل:

كأنّ عيونَ المجتلِينَ تعرَّضَتْ وشَمْسًا تَجَلّى يومَ دَجْنٍ سحَابُها[٦]
إذا ذُكرتْ للقلب كاد لذكْرِها يطيرُ إليها واعتراهُ عَذابُها
[الطويل]

قال: نعم؛ قالت: أحسنت، وأنت القائل:

سرتِ الهمومُ فبتْنَ غيرَ نيامِ وأخو الهموم يرومُ كلَّ مرام[٧]
طرقتْكَ صائدَةُ القلوب وليس ذا وقْتَ الزيارةِ فارْجعى بسلامِ
لو كان عهدُكِ كالّذى حدّثتنى لو صلْتُ ذاكِ فكان غير زمام
تُجرِى السِّواكَ على أغرَّ كأنّهُ بَرَدٌ تحدّر من مُتون غمام
[الكامل]

قال: نعم، قالت: سوءة لك! جعلتها صائدةَ القلوب، حتى إذا أناخت ببابِك جعلتَ دونَها حجابًا! ألا قلت:

---

(١) الديوان: «يرجى» بالجيم المشددة.
(٢) فى الديوان:
* وأسْمَرَ من سَاجٍ تَبِطُّ مَسَابِرُهْ *
(٣) دساكره: قبابه.
(٤) ديوانه ٤٧٩، وروايته: «ولم أكن».
(٥) رواية الديوان:
فأيّهاتَ أيّهاتَ العقيقُ وَمَنْ بِهِ وأيّهاتَ وَصْلٌ بالعقيق نواصِلُهْ
(٦) ديوانه ٥٢. (٧) ديوانه ٥٥١.

طرقتْكَ صائدةُ القلوب فَمَرْحَبًا نفسى فـداؤكِ فادْخـلى بسلام
[الكامل]

قال: نعم. فَسَوْءةً لى! ودخلتْ وخرجَتْ، وقالت: أيكم كُثَيِّرٌ؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت القائل:

وأعجبنى يـا عَـزَّ منـك خـلائقٌ حِسـانٌ -إذا عُدَّ الخـلائق- أربـعُ(١)
دُنُوّكِ حتى يطمعَ الصَّبُّ فى الصِّبا وقطعُكِ أسبابَ الصِّبا حين تَقْطَعُ
فـواللّهِ مـا يَـدْرى كـريمٌ مـطَلْتِه أيشتدّ إن قـاضـاكِ أَمْ يتضـرَّعُ!
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أعطاك اللّهُ مناك! وأنت القائل:

هَنيئًـا مَريئًـا غيرَ داءٍ مخـامِـرٍ لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ(٢)
فما أَنَا بالدّاعِى لِعَزَّةَ فى الورَى ولا شامِتٍ إنْ نَعْلُ عـزَّةَ زَلّتِ
وكنْتُ كَذِى رجلَيْن رجلٍ صحيحةٍ ورِجلٍ رَمَى فيها الزمانُ فشلَّتِ
[الطويل]

قال: نعم! قالت: أحسن الله إليك! ثم دخلت وخرجتْ، وقالت: أيّكم نصَيب؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القائل:

وَلَـوْلاَ أنْ يقـالَ صَبَـا نُصَيْبٌ لقلت: بنفْسِىَ النَّشَـأُ الصِّغارُ(٣)
ألا يـا لَيْتَنى قـامَـ تُ عنهـا وكـان يَحِـلُّ للنـاس القِمـارُ!
فصارتْ فى يدى وَ رتْ مالى وذاكَ الـرِّبحُ لـوْ عَلِمَ التّجـارُ!
عـلى الإعراض منها والتّوانى فـإنْ وَعَدَتْ فموعِدُها ضِمارُ
بنفسى كـلُّ مهضـوم حَشَـاهـا إذا قهـرَتْ فليسَ بها انتصـارُ
إذا مـا الزُّلُّ ضـاعَفْنَ الحشايا كفـاهـا أنْ يُـلاَثَ بهـا إزارُ
ولـوْ رأتِ الفَرَاشَـةَ طارَ منهـا مـع الأرواح رَوحٌ مسـتـطـارُ
[الوافر]

قال: نعم. قالت: والله أنَّ إحداهنّ لتَقوم من نَوْمتها فما تُحسِن أن تتوضأ! لا حاجة لنا فى شعرك.

ثم دخلتْ وخرجتْ وقالت: أيكم جَميلٌ؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القائل:

لَقَدْ ذَرَفَت عينى وطالَ سُفـوحُها فأصبحَ مِن نَفْسى سقيًا صحيحُها(٤)

---

(١) الموشح للمرزبانى ١٦٨، ١٦٩، مع اختلاف فى الرواية.
(٢) أمالى القالى ٢: ١٠٧.
(٣) بيتان منها فى الأغانى ١٤: ١٦٦ (ساسى).
(٤) ديوانه ٥١.

ألَا لَيْتنا كنَّا جميعًا، وإن نَمُتْ ... يُجاوِرُ فى الموتى ضَريحِى ضريحُها
أظَلُّ نهارى مستهامًا ويلتقى ... مع اللّيل رُوحى فى المنام ورُوحُها
فهل لىَ فى كتمان حبِّىَ راحةٌ ... وهل تنفعنّى بَوْحَةٌ لو أبوحُها!

[الطويل]

قال: نعم، قالت: بارك الله عليك! وأنت القائل:

خليلَىَّ فيما عشتما هلْ رأيتما ... قتيلًا بَكى من حُبِّ قاتِلِهِ قَبْلى![1]
أبيتَ مع الهُلّاكِ ضيفًا لأهلها ... وأهلى قريبٌ مُوسِعون ذوو فَضْل
فيارَبِّ إنْ تهلك بُثينَةُ لا أعِشْ ... فُوَاقًا ولا أفرَح بمالى ولا أهلى[2]
ويارَبِّ أنْ وقّيْتَ شيئًا فوَقِّها ... حُتُوفَ المنايا، ربِّ واجمع بها شمْلى

[الطويل]

قال: نعم، قالت: أحسنْتَ أحْسنَ الله إليكَ! وأنت القائل:

ألا ليتَ شعْرى هل أبيتَنَّ ليلةً ... بوادى القُرى! إنّى إذن لسعيد[3]
لكلِّ حديثٍ عندهُنّ بَشاشَةٌ ... وَكلُّ قتيلٍ بينهنّ شهيدُ
ويا ليتَ أيامَ الصِّبا كنّ رُجّعًا ... ودهرًا تولَّى يا بُثَيْنَ يعودُ!
إذا قلتُ ما بى يا بُثينَةُ قاتلى ... من الحبِّ، قالت: ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ رُدّى بعضَ عَقْلى أعش به ... تَناءَتْ وقالتْ: ذاكَ منْكَ بعيدُ
فما ذُكِرَ الخلّانُ إلّا ذكرتُها ... ولا البخْلُ إلّا قلتُ سوْف تجودُ
فلا أنا مرْدودٌ بما جئتُ طالبًا ... ولا حبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ
يموتُ الهوى منّى إذا ما لقيتُها ... ويَحْيَا إذا فارقتُها ويزيدُ

[الطويل]

قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلتَ لحديثها ملاحةً وبشاشة، وقتيلَها شهيدًا، وأنت القائل:

ألا ليتنى أعمَى أصمُّ تقودُنى ... بُثينَةُ لا يَخْفَى علىَّ مكانُها!

قال: نعم، قالت: قد رضيتَ من الدنيا أن تقودَك بثينةُ وأنت أعمَى أصمُّ! قال: نعم. ثم دخلتْ وخرجتْ ومعها مُدْهُن فيه غالية[4]، ومنْديل فيه كسوة، وصرّة فيها خمسمائة دينار، فصبّت الغالية على رأس جَميل حتى سالت على لحيته ودفعت إليه الصّرة والكسوة، وأمرت لأصحابه بمائة مائة.

* * *

(١) ديوانه ١٧٦؛ ١٧٧.
(٢) فواقا، أى قليلا، وأصله ما بين الحلبتين من الراحة.
(٣) ديوانه ٦١، ٦٢.
(٤) المدهن: القارورة، والغالية: أخلاط من الطيب.

وقال سوّار بن عبد الله: قال رؤبة بن العجّاج: أرسل إلىّ سليمان بن علىّ وهو[١] بالبصرة. فقال: هذا رسول الأمير أبى مسلم قدِم فى إشخاصِك. قلتُ: سمعًا وطاعة! أرجع إلى أهلى، فأصلح من شأنى. قال: ليس إلى ذلك سبيل. ثم التفت إلى الحَرَسِىّ فقال: هذا صاحبُك فشأنك، فلم أنهنهْ أنْ حُمِلْت على البريد، فوافيت الأنبار مع الجمعة الأخرى، فأدخِلْتُ سُرادقًا فيه عشرة آلاف رجل فى السّواد، واضعِى أذقانهم على قبائع[٢] سيوفِهم لا ينظر بعضهم إلى بعض إلاَّ شَزْرًا، ولا يكلمه إلاَّ همسًا، ثم اخترِق بى سرادقًا آخر مثل الأوّل على مِثل حالهم. فقلت فى نفسى: أحسِبه تذكّر علىّ بعضَ قولى فى بنى أميَّة، فأراد قتلى. فأيستُ عند ذلك من الحياة، ثم خرجتُ إلى سُرادق ثالث، فإذا قبَّة مضروبة فى وَسَطه، فدُفعتُ إليه، فسلّمت بالإمارة عليه، فقال لى: أنت رؤبة بنِ العَجّاج؟ قلت: نعم، جعلنى الله فداك أيُّها الأمير! فقال: أنشِدْنى كلمتَك:

* يَرمى الجلاَميدَ بجُلْمودٍ مِدَقّ[٣] *

فحقَّق فى نفسى ما كنتُ قدَّرتُ وظننتُ. ثم قلتُ: بل أنشدك، جعلتُ فداك:

لَبّيْـكَ إذْ دَعَـوْتَـنى لبَّـيْكـا ... تـطْلُبُ حقًّا واجبًا علَيكَـا[٤]

فسكتَ حتى فرغتُ منها، ثم أقبل علىَّ فقال: أنشِدْنى قولَك:

* يرمى الجلاميد بجلمود مِدَقّ *

قلت: بل أُنشِدُك قولى[٥]

مـا زال يَبْنى خَنـدقًـا ويَهـدِمـهْ ... وعسكـرًا يُشـرعُـهُ ويَهـزمُـهْ
ومَـغْنَـمًـا يجَـمعُـهُ ويَقـسِمـهْ ... مـروان لمـا غـرَّه مُنجّمـهُ[٦]

[الرجز]

فأمسك حتى فرغت ثم قال: أنشدنى كلمتك:

* يرمِى الجلاميد بجلمودٍ مِدقّ *

---

(١) هو والى البصرة، وانظر الأعلام.
(٢) قبيعة السيف ما على طرف مقبضة من فضة أو حديد، وجمعه قبائع، وفى ط: «قوابع» تحريف.
(٣) المدق: ما دققت به الشىء، والأرجوزة فى ديوانه ١٠٤ - ١٠٨.
(٤) فى ملحق ديوانه ١٨١.

قلت ونَشْجى مستجِدٌ حَـوْكَـا ... لبَيْـكَ إذْ دَعَـوْتَـنى لبَّـيْكَـا
أحمـد ربًّـا سـاقنى إلَـيْكـا ... الحمـد والنعمـةُ فى يـديكَـا

(٥) ملحق ديوانه ١٨٦.
(٦) الديوان:

* مَرْوَانُ لَمَّا أن تَهاوَتْ أنجُمُهْ *

فقلتُ: بل أنشِدُك:

مـازال يأتى الأمـرَ من أقطارِهْ عـلى اليمـين وعـلى يسـارهْ
حَـتّى أقـرَّ المُـلكَ فى قـرارِهْ مُشَمِّـرًا لا يُصـطَلَى بِنـاره[١]

فقال: أنشِدْنى وَيْحكَ: «يرمى الجلاميد»! فأنشدته:

وقاتِمِ الأعماقِ خاوِى المُختَرَقْ مُشتَبَـهِ الأعـلامِ لَمَّـاعِ الخَفق

فأنصتَ حتى انتهيت إلى قولى:

* يَرْمى الجلامِيدَ بجلُمودٍ مِدَقّ *

فوقفت. فقال: إنَّ أمير المؤمنين وجهنى إلى خراسان وبها جبال الحديد من الرجال؛ فدمّنتها حتى جعلتها دَهْسًا[٢]، فلم أجد لى مَثلًا إلّا قولك:

* يرمَى الجلاميد بجلمود مِدَق *

أنا والله ذلك الجلمود، اذْكُرْ حَاجَتَكَ. قلت: جعلت فداك! حاجتى أن تردَّنى إلى أهلى، فقد خرجتُ مِن عندِهم وهم على وَجَل! فقال: يا غلام، علىّ ببَدْرةٍ، فكأنّها لم تزل بين يديه. فقال: يا أبا الجحّاف، إنك أتيتنا والأموال مشفوهة[٣]، وقد أمرنا لك بشىء وهو زَمِر[٤]، ولو أتيتَنا ونحن على طُمَأْنينة لأوطأت العربَ عقِبَيْك، والدهرُ بيننا وبينَك؛ الطريق[٥] مستتبٌ ولك عَوْدةٌ، وعلينا معوّل! قال رؤبة: فوالله ما دريتُ بِمَ أجيبه! ثم قال: يُرَدُّ على السير الذى جاء عليه، فما شعر بِى سليمانُ فى الجمعة الثانية إلّا وأنا عنده، فأخبرته الخبر. فقال: يا أبا الجحّاف، هذه ديتُك، وربحتَ نفسَك[٦]!

* * *

قال: وحدّثنى عبد الله بنُ عمرو بنُ عبيد الله، قال: حدّثنى جَدّى عبيد الله، قال: لما دخل مَرْوَان بن أبى حفصة على المهدى، وأنشده شعرَه الذى يقول فيه:

---

(١) ملحق ديوانه ١٧٤، وبعده

* وَمرَّ مَرْوَانُ على حمارهْ *

(٢) الدهس: المكان السهل، ليس برمل ولا تراب.

(٣) أموال مشفوهة؛ أى كثرت نحوها الأيدى.

(٤) ك: «حشد» تحريف.

(٥) الطريق المستتب: الواضح اللاحب؛ وفى ط. «اطرق» تحريف.

(٦) الخبر فى الأغانى ١٨، ١٢٣ (ساسى).

أنّى يكونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بكائن لِبَنِى البناتِ وراثةُ الأعمامِ![1]
[الكامل]

أجازه بسبعين ألف درهم، فقال مَرْوان:

بسبْعينَ ألفًا راشَنى مِنْ حبائهِ وما نَالها فى النّاس من شاعرٍ قبْلى
[الطويل]

فحدثنا إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبى حفصة، قال: كان سبب اتّصَال مرْوان بخلفَاء بنى العبّاس، أن جاريةً يمانيةً أهْديتْ إلى أبى جعفر المنصور، فأنشدتْه شعرًا لمروان يمدَح به السَّرىّ[2] بن عبد الله، يذكر فيه وراثة العبّاس، فسألها: لمن الشعر؟ فأخبرتْه؛ فأمر بإحضار مروانَ، فوافاه بالرَّبَذة حاجًّا، فلقى الربيعَ[3] والمنصور عليل، العِلَّةِ، التى مات فيها، فقال: كن قريبًا حتى ندعو بك، فلم تزل العلّة تشتدّ به حتى مات قبل أن يصل إليه مَرْوان، فقال له الربيع: الحَقْ بالمهدىّ ولا تتخلّف عنه. وانصرف مَرْوانُ إلى اليمامة فجعلها طريقًا، وعليها بشرُ بنُ المنذر واليًا، فأوفده بِشْر فيمن أوفَد، وأعطى كلَّ رجل ألف درهم؛ فقدم مروانُ على المهدىّ، وقد مدحه بأربع قصائد؛ قوله:

صحا بعدَ جُهدٍ فاستراحَتْ عواذِلُهْ وأقصر عنه حِينَ أقصرَ بَـاطِلُهْ
[الطويل]

وقوله أيضًا:

طـاف الخيالُ فحيّـه بِسـلامِ أنّى أُلِمُّ وليسَ حـين لِـمَامِ!
[الكامل]

وقوله أيضًا:

اعصِ الهوى وتعزَّ عن سَعداكا فلمَثِـل حِلمكَ عن هَـواكَ نَهاكا
[الكامل]

وقوله أيضًا:

مَرَى العين شوقٌ حالَ دون التجلُّد ففاضَتْ بأسراب من الدمع جُسَّد[4]
[الطويل]

---

(١) الشعر والشعراء ٧٤١.

(٢) ك: «السدى».

(٣) هو الربيع بن يونس حاجب المنصور ووزيره، وانظر ترجمته فى ابن خلكان ١: ١٨٥.

(٤) ك: «حشد» تحريف.

– جسِّد؛ من الجُساد(١)، يريد أن يخلِطها به.

قال إدريس: فأعطى المهدىّ مرْوان ثلاثين ألف درهم. فانصرف إلى اليمامة، ثم عاد فى سنة أربع وستّين ومائة، فطلب الوصولَ بيعقوب بن داود، فأقام نحوًا من سنة، وغَضِب المهدىّ على يعقوب بن داود.

قال إدريس: فحدَّثنى مروان قال: بينا أنا واقف على باب المهدىّ؛ إذ خرج خالد بنُ يزيد بن منصور، فقال: يا بنَ أبى حفصة، ذكَرك أميرُ المؤمنين آنفًا، وهو يراك أشعَر الناس، غير أنّهُ يقول: لا حاجة لنا فيما قبَلك؛ فانصرف عن بابنا. قال: فانصرفتُ مغمومًا، ثم تذكّرت رجلًا أتحدّثُ عنه وأتَفرّج به، وآنس لديه، فأتيت يزيد بن مَزْيَد، فشكوت إليه ما قال لى خالد بن يزيد، فقال أدلّك على رجل صَدوقٍ له رقّةٌ لعلّه ينفعك! قلتُ: ومن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوتُ إلى الحسن، فشكوتُ إليه ما حكاه خالد من رأى أمير المؤمنين، فقال: بل من يعقوب بن داود. فقلتُ: بأبى أنت وأمّى! أنت ترجو أن يكون ذلك مِفْتاحًا لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك؛ فانصرفتُ وقلت:

أتانى مِنَ المهدىّ قولٌ كأنما ... به احتزّ أنفِى مُدْمِنُ الضِّغْنِ جادع(٢)

وقلت وقد خِفتُ التى لَا شَوَى لَهَا ... بلا حَدَثٍ: إنِّى إلى الله راجِعُ(٣)

وما لى إلى المهدِىّ لو كنتُ مذنبًا ... سِوَى حِلْمِه الصَّافى من الناس شافعُ

ولا هوَ عندَ السُّخْطِ منه ولا الرِّضا ... بغير الذى يَرْضَى به الله صانعُ

عَلَيْه من التقْوى رداءٌ يكُنُّهُ(٤) ... وللحَقِّ نورٌ بين عَيْنيهِ ساطِعُ

يُغَضُّ له طرْفُ العيونِ وَطَرْفُهُ ... على غيره من خَشيةِ الله خاشِعُ

هل البابُ مُفْضٍ بِى إليكَ ابنَ هاشمٍ ... فعُذْرِى إنْ أفضى بى البابُ ناصعُ

أتيتُ امرَأً أطلقتُه من وَثاقِهِ ... وقد أُنشِبَتْ فى أخدَعيْهِ الجوامع

وَجلّى ضبابَ العُدْمِ عنه وراشَهُ ... وأنهضَهُ معروفُك المتتابِعُ

فقلتُ: وزيرٌ ناصحٌ قد تتابَعَتْ ... عَلَيْهِ بإنعامِ الإمام الصَّنائعُ

وما كانَ لى إلاّ إليكَ ذريعةٌ ... وما مَلِكٌ إلاّ إليه الذَّرائعُ

وإن كان مطويًّا على الغدرِ كشحُهُ ... فلم أدرِ منهُ ما تُجِنُّ الأضالعُ

وقُلْ مثلَ ما قال ابن يعقوب يوسُفٌ ... لإخوتِهِ قولاً له القَلْبُ تالِعُ(٥)

تنفَّس فلَا تثريبَ إنّك آمِنٌ ... وأنّى لك المعروفَ والقَدْرَ جامعُ

(١) الجساد: الزعفران.

(٢) ك: «مدمن الضعف».

(٣) لا شوى لها؛ أى لا برء منها.

(٤) ل: «يكفه».

(٥) التلع: «التلف».

فما النَّاسُ إلّا ناظرٌ متشوِّفٌ ... إلى كلِّ ما تُسدِى إلىَّ، وسامعُ

[الطويل]

قال: وقد قلتُ فى قصيدة أخرى:

سَيُحْشرُ يعقوبُ بنُ داود خائبًا ... يلوحُ كتابٌ بين عَينيه كافرُ
خِيانتُه المهدىَّ أودت بذكره ... فأمْسى قَدْ كمنْ غَيَّبَتْهُ المقابِر
بدَا منكَ للمهدىّ كالصُّبح ساطعًا ... من الغشِّ ما كانت تُجنُّ الضمائر
وهلْ لبياضِ الصبح أنْ لاحَ ضوءُه ... فجاب الدُّجَى من ظُلمةَ الليل ساترُ!
أمَنزلة فوق التى كنتَ نلتَها ... تَعاطيْتَ، لا أفلحتَ مّما تحاذِرُ!

قال: ثم أتيت بها الحسن بعد يومين، فقال: ما صنعت؟ فأنشدتها إيّاه، قال: اكتبها لى؛ فقلت. قد فعلت. فقال: هاتها، فتناولها، وقال: لست واضعها من يدى حتى أضعَها فى يد المهدىّ. ثم مضى. وأتيته من الغد فقال: ما وضعتها من يدى حتى وضعتُها فى يد المهدىّ[1]، فقرأها، فَرَقَّ لك وأمر بإدخالك عليه، فاحْضُر يومَ الاثنين. فحضرت، فخرج علىَّ فقال: قد علم أمير المؤمنين بمكانك، وقد أحبَّ أن يجعل لك يومًا يشرِّفك فيه ويَبْلُغ بك! قلت: فمتى بأبى أنت وأمّى! قال: يوم الخميس، فعدت إليه يومَ الخميس، فإذا وجوه بنى العباس يدخلون على المهدىّ، فلما تتامَّ المجلسُ دعانى، فدخلت، فسلّمت، فردّ السلام، فقال: إنما حبسك عن الدخول انقطاعُك إلى الفاسق يعقوبَ بن داود، فافتتحْت النَّشيد بما قلتُ فى يعقوب، فأنشدته؛ ثم أنشدته، قولى فيه:

* طَرَقَتْكَ زائرةً فحىّ خيَالَها[2] *

[الكامل]

فأُعجب بذلك وقال: جزاك الله خيرًا! فقلت اشهدوا، هذا والله الشرفُ؛ أمير المؤمنين يجزينى خيرًا.

ثم أنشدته:

* أعادَكَ من ذكر الأحبَّة عائدُ *

[الطويل]

فلما صرت إلى قولى:

أيادِى بنى العبّاس بِيضٌ سوابغٌ ... على كلّ قوم بادئاتٌ عوائد

---

(١) زاد بعدها فى ك: «أمير المؤمنين».
(٢) الأغانى ٩: ٣٩ (ساسى) وبقيته:
* بيضاء تَخْلِط بالجمال دلالها *

فهم يَعدِلون السَّمْك من قُبَّةِ الهدى ... كما يعدُل البيتَ الحرامَ القواعدُ[١]
سواعِدُ عزّ المسلمينَ وإنما ... ينوءُ بصَوْلاتِ الأكُفِّ السَّواعِدُ
يزينُ بنى ساقى الحجيجِ خَليفَةٌ ... على وجههِ نورٌ من الحقّ شاهدُ[٢]
يَكونُ غِرارا نومُهُ من حذارِهِ ... على قُبّةِ الإسلام والخَلقُ راقدُ
كأنّ أميرَ المؤمنينَ محمدًا ... لرأفته بالناس، للناسِ والدُ[٣]
على أنه من خَالفَ الحقَّ منهُمُ ... سَقَتْهُ به الموتَ الحُتوفُ الرّواصد[٤]

[الطويل]

أشار إلَيّ، فأمسكت. فقال: يا بنى العبّاس! هذا شاعرُكم المنقطِع إليكم، المعادَى فيكم، فآتوا إليه ما يسرُّه.

فقلت: ينبغى إذ سمعوا كلامَ أمير المؤمنين وعَرَفوا رأيه أن يصلونى من أموالهم! فقال: أنا فارضٌ عليهم لك مالا، ففرض على موسى ابنه خمسةَ آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعةً وثلاثين ألف درهم، والربيعُ يَكتب كلّ ما فرض على كلّ رجل منهم.

فقال أبو عبد الله: يا أمير المؤمنين؛ إنما نحن من أهلك، فأدخِلنا فيما أدخلتهم فجعل عليه ألفًا، وعلى الربيع ألفين، فتمّتْ أربعين ألفًا.

فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ لى بهذا المال؟ قال: هذا - وأشار إلى الربيع - ثم قال: إن أميرَ المؤمنينُ يعطيك من صُلْب ماله. فأمر لى بثلاثين ألف درهم فى ثلاث بدَر، فجيء بهنَّ فطُرِحْن قريبًا، فدعوتُ وشكرتُ، فقال: يا بنَ أبى حفصة، ستجيئك صلاتى وبرِّى، ويأتيك منى ما يؤدِّيك إلى الغنى.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قد رأيت من قَبولك وبِشْرِك وسرورك[٥] بما سمعتَ منّى ما سأزداد به شَرَفا[٦]، وستسمعُ ويَبلغك. وقلتُ: يا أمير المؤمنين، لا يبلغ ما أعطيتَنى لشاعر بعدى! قال: أجَلْ، قلتُ، وآذنُ فى زيارتك! قال: نعم، قلت: يا أمير المؤمنين، لى عدوّ فيك وفى أهل بيتِك، فإن رأى أميرُ المؤمنين ألّا يجعل لأحد علىّ سلطانًا دونه! قال: لا سلطان عليك دُون أمير المؤمنين. فقلتُ: اكتب إلىَّ بذلك كتابًا، فأمر بالكتاب بذلك.

---

(١) ك: «البيت العتيق».
(٢) ساقى الحجيج، يريد العباس، جد الخلفاء.
(٣) الأغانى ١٠: ٨٩ (مطبعة الدار).
(٤) الأغانى: «سقته يد الموت».
(٥) ك: «سؤددك».
(٦) ل: «شعرا».

فانصرفتُ، فلمّا صرتُ خلف السِّتْر خرج إلىّ خادمٌ[١] بمنديل فيه أربعة أثواب: ثوب وَشْى، وثوب خَزّ، وجبَّة بياض محشوةٌ، وقميص. فقال ألبسوه وأعيدوه إلىَّ، فلبستُ الخزّ والوَشْى على الثِّياب التى كانت علىَّ وألقيتُ القميصَ على أحد منْكِبَىَّ والجُبَّة على المنكب الآخر، فقال لى: يا بن أبى حفصة، أتدخلُ على أمير المؤمنين هكذا وقد مثّلت بنفسك؛ فقلت: والله لو كانت كرامة أمير المؤمنين أُحُدًا لما خلعتُ منها شيئًا أطيقُ حمله.

ثم دخلتُ، فلما رآنى تبسَّم، ثم قال: مِطْرَف؛ فأبطئوا به، فقال: المطْرَف؛ وأنا قائم، ثم قال الثالثة: المِطْرف؛ فلما أبطئوا انصرفتُ وقعدتُ خلفَ السِّتر، فلم أَلْبَثْ أن رُفِع الستر وخرج أمير المؤمنين على دابَّةٍ، فقمتُ إليه، فلما رآنى قال: المطْرَف؛ فما برح حتى أُتى به، فَنَشر[٢] علىَّ بين يديه، وأمر بعشرة من خَدَمَ الرُّوم، وقطيعة بناحية السَّواد، فبعت القطِيعةَ من عيسى بن موسى بعشرين ألف درهم، وبرذَوْن بسَرْجه ولجامه، قال: فلم يَزَلْ مروانُ على باب المهدىّ حتى هلك.

* * *

وعن عبد الله بن هارون قال: حدّثنى عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله، عن المغيرة، قال: دخل المغيرةُ بن عبد الرحمن المخزومىّ، وأبو السائب، والعثمانىّ بن لؤلؤ الرطب، وابن أخت الأحوص على المهدىّ وهو بالمدينة فقال: أنشدونى، فأنشد المغيرة:

وللناسِ بدرٌ فى السماءِ يَرَوْنه ... وأنت لنا بدرٌ على الأرض مُقْمِرُ
فبالله يا بدْرَ السماءِ وضوءَه ... تزالُ تكافى عُشْرَ مالَك أضْمِرُ
وما الْبَدْرُ إلاّ دونَ وجهك فى الدُّجَى ... يغيب فتبْدُو حين غابَ فتُقْمِرُ
وما نظرَتْ عينى إلى البدر ماشيًا ... وأنتَ فتُمْسِى فى الثياب فتسْحِرُ[٣]
[الطويل]

وأنشد ابن أخت الأحْوَص:

قالَتْ كُلَابَةُ: مَن هذا؟ فقلْتُ لها: ... هذا الذى أنتِ من أعدائِهِ زعموا
إنى امرُؤٌ لجَّ بى حبُّ فأحْرَضَنى ... حتى بُليت وحتى شَفَّنى السَّقَم
[البسيط]

وأنشده العثمانىّ المخزومىّ:

رمى القلبُ من قلبى السَّوادَ فأَوْجَعا ... وصاحَ فصيحُ بالرَّحيل فأسْمَعا

(١) ك: «الخادم».
(٢) ل: «فشن»، وما أثبته من ك.
(٣) ك: «وأنت فتمشى».

وغَرَّدَ حادِى البَين وانْشَقَّت العَصا ... فأصبحْتُ مسلوبَ الفؤادِ مفَجّعا(١)
كَفى حزَنًا من حَادِثِ الدّهر أننى ... أرى الْبَيْنَ لا أَسْطِيعُ للبيْن مدْفَعَا
وقد كنْتُ قبلَ اليوم بالبيْن جاهِلاً ... فيالَكَ بيْنًا ما أَمَرَّ وأوْجَعَا!
[الطويل]

وأنشده أبو السائب:

أصِيخَا لداعى حُبِّ ليلَى فَيِمَّما ... صدُورَ المطايَا نحوَها فَتَسمَّعا
خليلَىَّ إنْ ليلَى أقامت فإنّنى ... مُقيمٌ، وإن بانَتْ فبينا بنا معا
وأنْ أثبتتْ ليلَى بربعٍ يحوزُها(٢) ... قعيدَ كما باالله أن تتزَعْزَعا
[الطويل]

فقال: والله لأغنّينّكم الليلة!

ثم قال للمغيرة: هل لك من حاجة؟ فإنه بلغنى أنّك بعْت جاريتَك فى دَيْن كان عليك، قال: والله يا أمير المؤمنين، لقد فعلتُ ذلك، قال: فلأردَّنّها عليك، فأجاز ثلاثةً منهم بعشرة آلاف دينار؛ إلّا ابن لؤلؤ الرُّطْب، فإنه سار معه، فمرّ بدار فقال: لمن هذه الدار؟ فقال: للأحوص الذى يقول:

يا بيْتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ ... حَذَرَ العِدَا وبه الفؤادُ موكَّلُ
وأراكِ تَفْعلُ ما تقول وبعضُهم ... مَذِقُ الحديثِ يقولُ ما لا يفعلُ
[الكامل]

فقال: عَزّ علىّ ألّا تأخذ شيئًا! ثم قال للربيع: اعتِق ما تَملك إن لم تعطه أنت عشرة آلاف دينار، وأنا عشرة آلاف دينار.

فقبضها وخرج.

* * *

قال: ودخل ابن الخيَّاط(٣) على المهدىّ فمدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فلمّا قبضها فرَّقها على الناس وأنشأ يقول:

لَمسْتُ بكفِّى كفَّه أبتغى الغِنى ... ولم أدْرِ أنَّ الجودَ من كفِّه يُعدِى(٤)

---

(١) ك: «مضيعا».
(٢) كذا فى ك، وفى ل: «إنثنت».
(٣) ك، ل: «الحياط» وما أثبته من الأغانى ١٨: ٩٤.
(٤) الأغانى ١٨: ٩٤.

فـلا أنـا منـهُ مـا أفـادَ ذَوُو الغِنى أفَـدْتُ، وأعْدَانى فبـدَّدْتُ ما عنـدى[١]

[الطويل]

فأعطاه بكلّ درهم دينارا.

* * *

قال: ودخل سَلْم بن عمرو الخاسر على المهدىّ، فقال:

أليْسَ أحقَّ الناس أنْ يُدركَ الغنى مُـرَجًّى أمـير المؤمنـينَ وسـائله
لقد بسطَ المهدىُّ عَدلاً ونائـلاً كـأنهما عَـدْلُ النَّبـىِّ ونـائله!

[الطويل]

فقال: أمّا ما ذكرت يا سلْمُ من الجود، فوالله ما تعدِل الدنيا عندى خاتمى هذا. وأما العَدْلُ فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ، وإنى لأتحرَّاه جُهْدى. ثم أمر له بعَشْرة آلاف درهم، وعشرة أثواب.

ثم وفد عليه فى السنة الثانية، فأنشده:

إنّ الخـلافَـةَ لم تكن بخـلافَـةٍ حتى استقـرّتْ فى بنى العبّـاس
شُـدَّتْ منـاكِبُ مُلكِهم بخـليفـةٍ كـالـدَّهـرِ يخلِط لِينَـهُ بِشِمـاس[٢]

[الكامل]

فأمر له بعشرين ألف درهم، وعشرين ثوبًا.

فلما كان فى العام الثالث وفَدَ عليه فأنشده:

أفْنَى سؤالَ السـائلينَ بجـودِهِ ملكٌ مـواهُبهُ تـرُوحُ وتغْتـدى
هـذا الخليفَـةُ جـودُهُ ونـوالُـه نَفِـد السؤالُ وجودُهُ لم يَنْفَـدِ

[الكامل]

فأمر له بثلاثين ألف دِرهم وثلاثين ثوبًا.

* * *

وعن أحمد بن بكر الباهلىّ؛ قال: حدَّثنى حاجبُ المهدىّ قال: قال لى المهدىّ يومًا نصفَ النهار: أخرج وانظر مَنْ بالباب! فخرجت فإذا شيخٍ واقف، فقلت: ألك[٣] حاجة؟ فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتى[٤] أحدًا غيرَ أمير المؤمنين. فتركته ودخلتُ على المهدىّ، فقال لى: أخرج فانظر مَنْ بالباب! فخرجت، فإذا الشيخ، فقلت: إن كان لك حاجة فاذكرها، قال: لا أذكرها إلّا لأمير

(١) الأغانى: «فأتلفت».
(٢) ك: «لبثه بشماس».
(٣) ل: «لك».
(٤) ك: «بها».

المؤمنين، ففعل هذا مرّاتٍ، فقال المهدىّ: انظر من بالباب! فقلت: شيخٌ[(١] قد سألتُه غير دفعةٍ عن حاجته. فقال: ما يمكن أن أخبِر بحاجتى أحدًا دون أمير المؤمنين[١)]، وقلت:[(٢)] أيدخُل؟ قال: نعم، ومُرْهُ بتخفيف؛ فخرجتُ، فقلت له: أدخل وخَفِّف، فدخل وسلّم بالخلافة، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، إنا قد أُمِرْنا بالتّخفيف[(٣)]:

فإن شئْت خَفَّفْنا فكنّا كرِيشَةٍ ... متى تَلْقَها الأنفاس فى الجوّ تَذْهَبِ
وإن شئتَ ثَقَّلْنا فكنّا كصخْرةٍ ... متى تُلقِها فى حومْةِ البحرِ تَرْسُبِ
وإن شئتَ سلّمْنا فكنّا كراكبٍ ... متى يقضِ حقًّا من سلامِك يَعْزُبِ

فضَحِك المهدىّ وقال: بل تُكْرَم وتُقْضَى حاجتُك. فقضى حاجَته، ووصَله بعشرة آلاف درهم.

* * *

قال المبرّد: حدَّثنى محمد بنُ عامر الحنفىّ[(٤)]، قال: ذكروا أن فِتْيانًا كانوا مجتمعين قد ائتلفوا فى نظام واحد، كلُّهم ابن نَعْمة، وكلُّهم قد شُرِّد عن أهله، وقَنِع بأصحابه، فذكر ذاكرٌ منهم وقال: كنّا قد اكترَيْنا دارًا شارعةً[(٥)] على أحدِ طرق بغداد المعمورة بالناس، [وكنّا نفلِس أحيانًا ونوسِر أحيانًا، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله][(٦)]؛ وكنّا[(٧)] لا نستكثر أن تقع مئونتُنا على واحدٍ منّا إذا أمكنه، ويَبْقى الواحد منّا لا يقدر على شىء، فيقوم أصحابُه بأمره الدّهرَ الأطْول، فكنّا إذا أيْسَرْنا أكلْنا من الطعام أطيَبَه، ولبِسنا من اللباس[(٨)] أليقه، ودعوْنا الملْهين والمُلهيات، وكنّا[(٩)] فى أسفلِ الدار، وإذا عدمنا الطّرب فمجلسُنا[(١٠)] فى غرفة لنا، نتمتّع فيها بالنّظر إلى الناس، وكنّا لا نُخِلُّ بالنبيذ فى عسرٍ ولا يسر ولا نبيع الثوبَ من الأثواب. فإنّا لكذلك يومًا إذَا[(١١)] بفتًى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعَدْ وادخل، فإذا رجل حُلْوُ الوجه؛ سرىُّ الهيئة، تنبىءُ رؤيتُه[(١٢)] أنّه من أهل النِّعَم، فأقبل علينا فقال: إنى سمعتُ بمجتمَعكم وحُسنِ منادَمتكم وصحّة أُلْفَتِكم؛ حتى كأنّكم أدْرِجتم جميعًا فى قلبِ[(١٣)] أحدِكُم، فأحببت أن أكونَ واحدًا منكم، وألّا تحتشمونى[(١٤)]. قال: وصادف ذلك منّا إقتارًا من القُوت، وإكثارًا من النبيذ. فقال لغلام[(١٥)] معه: هاتِ ما عِندَك. فَغَبَر عنّا[(١٦)] غير بَعيد،

(١-١) ك: «شيخ قد سألته: ألك حاجة؟ قال: ما يخبر إلا أمير المؤمنين».
(٢) ط: «فقلت».
(٣) ك: أضاف: «وأنشأ».
(٤) فى العقد ٦: ٣٨٢: «حدثنا محمد بن عامر الحنفى، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركته شيخًا كبيرًا مملقًا، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئًا جاد به، وقد كان قديمًا ولى شرطة البصرة؛ فحدثنى هذا الحديث الذى نذكره ووقع إلى من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان، إلا أن معانى الحديث مجموعة فيما أذكر لك». ثم ساق بقية الخبر.
(٥) كذا فى العقد؛ ودار شارعة، أى قريبة من الطريق النافذ، وفى ط: «شارعته» تحريف.
(٦) من العقد.
(٧) كذا فى العقد، وفى ط: «فكنا».
(٨) ل: «الثياب».
(٩) العقد: «وكان جلوسنا».
(١٠) ط: «فجلسنا»؛ والصواب ما أثبته من العقد.
(١١) ك: «إذا نحن».
(١٢) العقد: «رواؤه».
(١٣) العقد: «فى قالب واحد».
(١٤) العقد: «فلا تحتشموا».
(١٥) ك: «لغلامه»، العقد: «لغلام له».
(١٦) غبر: ذهب، وفى العقد: «غاب».

ثم أتى بسَلّةٍ خيزُران فيها طعام [المطبخ][١]، من جِداء ودجاج وفِراخ ورُقاق[٢] وأشْنان وأخلّة[٣] ومَحْلَب[٤]، فأصبْنا من ذلك الطعام ثم أفضْنا[٥] فى شرابنا، وانبسط الرجل؛ فإذا هو أحلَى خَلْقِ الله إذا حَدَّث، وأحسنُهم استماعًا إذا حُدِّث. وأمسَكهُم عن مُلاحاةٍ إذَا خُولف، ثم أفضَيْنا معه إلى أكرم مخالَعة، وأجملِ معاشرة، فكنّا ربما امتحنّاه بأن ندعوَه إلى الشىء الذى نعلم أنّه يكرهه، فيُظهِر لنا أنه لا يحبُّ غيره، ويُرَى ذلك فى أسارير وجهِه، فكنّا نغْنَى به عن حسن الغنى[٦] ونتمثّل بكلامه، ونتدارس أخبَارَه، فشُغِلنا بظَرْفه، وبما عاشَرَنا به عن وصفه، والسؤال عن تعرُّف اسمه ونسبه، فلم يكن عندنا من أمره إلاّ معرفة الكنية، فإنّا سألناه عنها فأنبأنا أنه يكنَى أبا الفضل.

فقال لنا يومًا بعد اتّصال الأنس: ألاَ أخبركم كيف عرَفْتُكم؟ قلنا له: إنّا لَنُحِبّ ذاك، فقال: أحببتُ جاريةً فى جِوارِكم، وكانت مولاتُها[٧] ذاتَ حبائب، فكانت تختلف بالرّسائل بينها وبين حبائبها، وكنت أجلس لها فى الطريق، ورأيت غرفتَكم هذه، فسألت عن خبرها، فخُبِّرتُ عن ائتلافكم ومساعدة بعضكم بعضًا، فكان الدخولُ عندى فيما أنتم فيه آثر عندى من الظَّفر بالجارية. فسألناه، فخبرنا بمكانها، فقلنا له: فإنّا نخدعها لك[٨] حتى يُظْفِرَك الله بها، قال: يا إخوتى[٩]؛ إنّى والله على ما تَرَوْنَ من شدّة الشوق إليها[١٠] والكَلَف بها[١١]، ما قدَرتُ فيها حرامًا قطّ، وما تقديرى إلاّ مطاولتها ومصابرتها؛ وإلى أن يمنّ الله جلّ وعزّ بثروة فأشتريها.

فأقام معنا شهرين ونحن به على غاية الاغتباط، وبقربه على غاية السرور، ثم احتبس[١٢] عنّا فنالنا[١٣] بفراقه ثُكْلٌ ممِضّ[١٣] ولوعةٌ مؤلمة، ولم نعرف له منزلاً نلتمسه فيه، فيكون فقْدُه أخفَّ علينا، فكَدَر عيشُنا الذى كان صافيًا قد طاب لبابهُ، وقُبح ما كان قد حَسُن لنا بقربه، وانصرم الغمّ بمحادثته. فكنّا فيه كما قال القائل:

يُـذكّـرنيهمْ كـلُّ خـيـر رأيتُـهُ وشرٌّ، فما أنْفَكُّ منهم على ذُكْرِ[١٤]
[الطويل]

فغاب عنّا عشرين يومًا لا نلتذّهنّ[١٥]، ثم نحن يومًا مجازون فى الرُّصافة، فإذا به وقد طلع فى موكب[١٦] نبيل، وزِىٍّ جليل، فحيث بَصُر بنا انحطّ عن دابّته، وانحطّ غلمانُه، ثم قال: يا إخوتى،

---

(١) من العقد.
(٢) الرقاق: الخبز المنبسط الرقيق.
(٣) الأخلة: جمع خلال؛ وهو ما تخلل به الأسنان.
(٤) المحلب، كمسكن: شجر له حب يجعل فى الطيب.
(٥) كذا فى ل، وفى ك والعقد: «أفضينا».
(٦) العقد: «عن تعرف اسمه ونسبه».
(٧) العقد: «سيدتها».
(٨) العقد: «نختدعها».
(٩) العقد: «يا إخوانى».
(١٠) ساقطة من ل والعقد.
(١١) العقد: «ما» من غير واو.
(١٢) العقد: «اختلس».
(١٣-١٣) ط: «فتألمنا لفراقه كل ممض». والأجود ما أثبته العقد.
(١٤) لعكرشة العبسى، من كلمة له فى الحماسة - بشرح التبريزى ٣: ٧٨ - ٧٩، يرثى بنيه.
(١٥) ساقطة من العقد.
(١٦) العقد: «مركب» وفى ك «موكب عظيم».

ما هَنأنى عيش بعدَكم! ولست أماطِلُكم بحديثى وخبرى حتى نبلغ المستقر[١]. ثم مال بنا إلى مسجد فقال: أعرِّفكم أوّلاً نفسى[٢]، أنا العباس بن الأحنف؛ وكان من خَبرى أنّى انصرفت من عندكم إلى منزلى؛ والمسوّدة قد أحاطت بى فَمُضِىَ[٣] بى إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحيى بن خالد، فقال: ويحك يا عبّاس! إنّما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخَذِك وحُسن تأتّيك. وإنّ الذى ندبتُك له من شأنك، وقد عرفتَ خطراتِ الخلفاء؛ وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينها عَتْب؛ وهى بِدَالّة[٤] المعشوقِ تأبَى أن تعتذر، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رُمت الأمر من قِبَلها فأعيانى، وهى أحْرَى أن تستعزّه[٥] الصبابة، فقل شعرًا تسهّل به هذا السبيل. فقضى كلامَه، ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه، وأعطِيتُ قرطاسًا ودواةً، فاعترانى الزَّمَع[٦] ونَفر عنّى كلّ شىء من العروض، ثم انفتح لى شىء من الأشياء، والرسل ما تُغبّى، فجاءتنى أربعةُ أبيات رضيتها؛ وقعت صحيحةَ المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمةً لما طُلِب، منى فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعةَ أبيات، فإن كان فيها مقنَع [وجّهت بها]. وفى قَدْر ذهاب الرسول ومجيئه حضرنى بيتان من غير ذلك الروىّ، فكتبتُ الأربعة الأبيات فى صدر الرُّقعة وعقّبت بالبيتين. فكتبتُ:

العاشقان كِلَاهما متغضبُ ... وكِلَاهما متوَجِّدٌ مُتجنِّبُ[٧]
صَدّتْ مغاضِبةً وصدَّ مُغَاضِبًا ... وكِلَاهما مِمّا يعالِجُ مُتْعَبُ
راجِع أحِبَّتَكَ الذين هجرتَهُمْ ... إنَّ المتيَّم قَلَّما يتجنَّبُ
إنَّ التجنّب إنْ تطاوَلَ منكما ... دَبّ السلُوُّ له، فعزّ المطلبُ

[الكامل]

ثم كتبتُ تحت ذلك:

لابدّ للعاشقِ مِنْ وقفةٍ ... تكونُ بينَ الوصل والصَّرم[٨]
حتى إذا الهَمُّ تمادَى بِهِ ... راجَعَ مَنْ يَهْوَى عَلى رُغْمِ

[السريع]

قال: ووجّهت بالكتاب، فدفَعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيتُ شعرًا أشبَه بما نحن فيه من هذا، والله لكأنى قُصِدتُ به. فقال يحيى: فأنت والله المقصودُ به يا أمير المؤمنين؛ هذا يقوله العبّاس بن الأحنف فى هذه القصّة، فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قولى:

---

(١) العقد: «حتى آتى المنزل».
(٢) «بنفسى».
(٣) ك: «فمضوا». وما أثبته من ل والعقد.
(٤) كذا فى العقد، وفى ط: «بعزة دلالة».
(٥) تستعزه: تغلبه، وفى ط: «تستفزه» وما أثبته من العقد.
(٦) الزمع: الدهش والخوف.
(٧) العقد: «متعتب».
(٨) الأغانى ٦: ٢٩٥ (طبعة الدار)، وذكر بعد هذا البيت:

يَعْتِبُ أحْيَانًا وَفِى عَتْبِهِ ... إظهارُ ما يُخْفِى من السُّقْمِ
إشفاقُهُ داعٍ إلى ظَنِّهِ ... وَظَنُّهُ داعٍ إلى الظُّلْمِ

* راجَعَ من يهوَى على رُغْمِ *

استفرغ ضحكا [حَتّى سمعت ضحِكه][١]. ثم قال: إى[٢] والله، أراجعها على الرّغم! وقال: يا غلام، نَعْلَىَّ! فنهض وأذهله الجَذَلُ والسرور عن أن يأمرَ لى بشىء، فدعانى يحيى وقال: إن شعرَك قد وقع بغاية الموافَقة، وأذهلَ أمير المؤمنين السُّرورُ عن أن يأمرَ لك بشىء. قلت: لكنّ هذا الخبر لم يقع[٣] منّى بغاية الموافقة. قال: إذن أوقعه. ثم جاء إنسان فسارَّه بشىء. فنهض ونهضتُ لنهوضه، فقال: يا عَبّاس، أمسيتَ أنبل[٤] النّاس، أتدرى ما سارَّنى به هذا الرسول؟ قلت: لا. قال: ذَكَر أنّ ماردة تلقّت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه، فقالت: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين؟ فأعطاها الشِّعر، وقال: هذا الذى جاء بى. قالت: فمن يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف. قالت: فبكم كُوفِئ؟ قال: ما فعلتُ شيئًا. قالت: إذن والله لا أجلس حتى يكافأ، فأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامها[٥]، وهما يتناظران فى صلَتِك، فهذا كلّه لك. قلت: ما لى من هذا إلّا الصّلة! فضحك وقال: هذه أحسَنُ من شعرك. فأمر لى أميرُ المؤمنين بمال كثير، وأمرتْ هى لى بمال دونَه، وأمر لى الوزيرُ بمالٍ دون ما أمرتْ به، وحملت على ما ترون من الظَّهر، ثم قال لى الوزير: تمام اليد عنك ألّا تخرج من الدار حتى يؤتَّل[٦] لك بهذا المال، فاشتريَتْ لى ضياع تغلّ عشرين ألف درهم، ودفع إلىّ بقيّة المال.

فهذا هو خبرى الّذى عاقنى عنكم؛ فهلُمّوا حتى أقاسِمَكم الضِّياع، وأفرِّقَ بينكم المال!

فقلنا: هَنأك الله مالك، كلُّنا[٧] يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله فأقسَم وأقسمنا؛ وقال: أنتم أسوق فيه، قلنا: أمّا هذا فنعم؛ فامضُوا بنا إلى الجارية حتى نشتريَها.

قال: فمضينا إلى صاحبتها[٨] وكانت جارية جميلةٌ حلوةٌ لا تحسن شيئًا أكثرَ ممّا بها[٩] من الظَّرْف - وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار[١٠]. فاستامَت بها صاحبتُها خمسمائة دينار[١٠]، فأجبناها بالتعجّب، فحطّت مائةً، فقال لنا العبّاس: يا فتيان، إنّى أحتشم والله أن أقول بعد ما قلتم، ولكن هى جارية فى نفسى؛ بها يتمّ سرورى. إنّ هذه الجارية أريد إيثارَ نفسى بها، وأكره أن تنظر إلىّ بعين مَنْ ماكَسَ فى ثمنها، فَدعُونى أُعْطِها خمسمائة دينار، قلنا: قد حطّت مائة. قال: وإن فعلت!

---

(١) من العقد.

(٢) ط: «إنى». وما أثبته من العقد.

(٣) العقد: «ما وقع».

(٤) العقد: «أملأ الناس»؛ من قولهم: ملؤ الرجل، فهو ملىء، صار ثقة غنيا.

(٥) العقد: «وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين».

(٦) التأثيل: التهيئة والتأصيل.

(٧) العقد: «فكلنا».

(٨) ك: «سيدتها».

(٩) ك: «فيها»، وفى العقد: «أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل».

(١٠-١٠) العقد: «فلما رأى مولاها ميل المشترى استام بها خمسمائة».

فصادفت مولاتها رجلًا حرًّا؛ وأخذت من الثمن ثلاثمائة، وجهّزتها بالباقى، فما زال لنا عَشيرًا حتى فرّق بيننا وبينه الموت.

* * *

وعن المبّرد قال[١]: حدثنى من أعتمد عليه أنّ مُسْلِمَ بنَ الوليد كان يمدح مَنْ دون الخليفة، وكان يقول: إنّ نفسى تذوب حسراتٍ من أنه يحوى خزائنَ[٢] الخلفاء من لا يقاربنى فى أدب، ولا يوازبنى[٣] فى نَسَب، ولا يَصلُحُ أن يكون شعرهُ خادمًا لشعرى. وكان إذا كَسَب جمع أصحابَه فلم يخرج من منزله؛ حتى يأتىَ على جميع ما معه، فلا يزال فى أكلٍ وشرب وقصْفٍ حتى يُفنِىَ [جميع][٤] ما معه. فعرف بذلك، وكانت البرامكة ويزيد بنُ مَزيد الشَّيْبانى، ومحمد بن منصور بن زياد يَبَرُّونه ويعطفون عليه، ويتفقّدون مِن حاله. فخرج ذاتَ يوم فلقىَ يزيدَ بنَ منصور الْحِمْيرىّ بباب الرشيد، فسَلَّمَ عليه، فردّ عليه السّلام، ورحّب به، وسأله عن شأنه؛ فخبَّره وسأله أن يقرِّبه من الخليفة، وأن يحتال حتّى يُعَدَّ فى مادحيه[٥] ومن تَجرِى عليه أرزاقُه. فقال الحميرىّ: سأتأتّى لوصولك إلى أمير المؤمنين، فدخل الحميرىّ، فأصاب أميرَ المؤمنين لَقِسَ النفس، قد اشتمل عليه الفكر. [فقال له يحيى: ما بك يا أمير المؤمنين؟ قال: الفكر][٦] فى سرعة تقضّى أمور الدنيا، وأنّا لا نتشبّث[٧] منها بشىء إلا كان كالظِّلّ الزائل، والسراب الخادع.

فقال له جعفر بن يحيى: يا أميرَ المؤمنين، أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الأيّام، أو يمنعك مِمّا لا تستمتع به! إنما هذا الّذى أنت فيه، عارضٌ عَرَضَ لك، وقد كان مَلِك من الملوك يقال له: «بِهْمان»[٨] - وكان من أجلّ ملوك العجَم، وكان حكيما - يقول: الهمُّ مَفسدَة للنفس، ومَضَلّة للفهم، وَمَشْدَهَةٌ[٩] للقلب، ومِنْ أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه، وقد قالت الحكماء: بالسرور يطيب العيش، ومع الهمِّ تمنّى[١٠] الموت.

قال له سليمان بن أبى جعفر[١١]: يا أمير المؤمنين؛ يُروَى عن لقمان الحكيم[١٢] أنه قال: مَنْ يملك يستأثر، ومن لا يستبِر يندم؛ والهمّ نصف الهَرَم، والفقْر الموت الأكبر.

قال: فكأنّ الرشيد نشِط واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدّم إليه الحميرىّ وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ خلّفتُ بالباب آنفًا رجلًا من أخوالك الأنصار؛ متقدِّمًا فى شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدةً يذكر فيها أنسَه ولهوَه ولعبَه ومحادثته إخوانَه؛ ويذكر مجالس اتصَلت له؛ بأبلغ قول

---

(١) الخبر فى ترجمة مسلم بن الوليد، الملحقة بديوانه، ص ٤٢٩ (نشرة الدكتور سامى الدهان)، عن كتاب جمهرة الإسلام.

(٢) ك: «الجوائز».

(٣) وكذا فى الديوان، وفى ك: «يوازنى».

(٤) من ك.

(٥) ط: «ممازحيه»، وما أثبته من الديوان.

(٦) من الديوان.

(٧) الديوان: «ولسنا نتشبث منها بشىء».

(٨) الديوان: «كيومرد».

(٩) الديوان: «مدهشة».

(١٠) ك: «يتمنى».

(١١) ك: «منصور».

(١٢) الديوان: «القس».

وأحسن وصف، وأقرب رَصْف، تبعث والله على الصَّبابة والفرح، وتُباعِد عن الهمّ والتَّرَح، وكأنه قد وُفّق بيُمْن أمير المؤمنين وسعادَةِ جَدّه لأنْ يكون مبرّأً من هذه الشكوى، وزائدًا في سرور أمير المؤمنين[١]، مستديًا له صِلَة رَحِمه؛ والتشرّفَ بخدمته.

قال: فاستفزّه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسلَ بعضهم في أثر بعض حتى دخل. وكان حلوَ الشمائل، فوصل إليه في وقت قد كان خرج فيه من رسم الشّباب وشِرّته[٢]، ولم يكن في عِداد من قد اضطرب سِنًّا[٣]. وكان ناهِيكَ من رجل! معه فهم وتجربةٌ وتمييز ومعرفةٌ، فأُمْهِل حتى سكَن، ثم أَذِنَ له في الجلوس والانبساط، واستدعى منه أن يزيد في الأنس.

فانبرى مُسلم ينشد قصيدته، فجعل الرشيد يتطاول لها؛ ويستحسن ما حكاه من وصف شرابٍ ولهو، ودَماثةٍ وغَزَل، وسهولةِ ألفاظ. ثم أمر له بمالٍ، وأمر أن يُتّخذ له مجلس يتحوّل إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسمّاه يومئذ بآخر بيت من قصيدته: «صريعَ الغواني»، والرشيد الّذى سمّاه بهذا الاسم، والقصيدة هى هذه:

أديرًا عليّ الكأسَ لا تشرَبا قَبْلى ... ولا تطلُبا من عندِ قاتلتِى ذَحْلى[٤]
فما جزَعِى أنّى أموتُ صَبابـةً ... ولكنْ على مَن لا يحلُّ لها قَتْلى
أُحِبُّ التى صدّت وقالت لِترْبِها: ... دَعيهِ الثّريَّا منه أقربُ من وصلى[٥]
بَلَى رُبما وكّلْتُ عينى بنظرةٍ ... إليها تزيد القلبَ خَبْلًا على خَبْلِ
كتمتُ تباريحَ الصّبابةِ عاذِلى ... فلم يدرِ ما بى فاسترحْتُ من العَذْلِ[٦]
ومانحةٍ شُرّابها الملكَ قهوةٍ ... يهوديَّةِ الأصهار مسلمةِ البْعلِ
ربَيبةِ شمسٍ لَمْ تُهَجَّن عُروقُها ... بنارٍ ولم يُجْمَعْ لها سَعَفُ النخل
بَعثنا لها منّا خطيبًا لبُضْعِها ... فجاءَ بها يمشى العِرَضْنَةَ فى مَهْلِ[٧]
قد استُودِعت دنًّا لها فهو قائمٌ ... بها شفقًا بين الكروم عَلى رجْل
فوافَى بها عَذْراءَ خِلٌّ أخو نَدًى ... جزيلُ العطايا غيرُ نَكْسٍ ولا وَغْلِ
معتّقـةً لا تشتكى دمَ عاصرٍ ... حَرُوريَّة فى جَوْفها دلقمها يغلى[٨]

---

(١) الديوان: «الخليفة».

(٢) الديوان: «ونزقه».

(٣) الديوان: «حياء».

(٤) ديوانه مع اختلاف فى الرواية. والذحل: طلب الثأر.

(٥) بعده فى الديوان:

أماتَتْ وأحْيَتْ مُهْجَتِى فهىَ عِنْدَها ... مُعَلَّقَةٌ بينَ المواعيد والمَطْلِ
وَمَا نلتُ مِنْهَا نائلًا غيْرَ أنّنى ... بشجْو المحبين الأولَى سَلفوا قبْلِى

(٦) تباريح الصبابة: حرارتها.

(٧) العرضنة: مشية فيها إنحراف من التيه.

(٨) الديوان: «وطء عاصر»، وشبهها برجل حرورى يغلى دمه.

أغـارَتْ على كفّ المُـديـرِ بلَونها ... فصارت له منها أناملُ كالذَّبل[١]
أمـاتَتْ نفوسًـا من حياةٍ قـريبةٍ ... وفاتتْ فلم تُطلب بوتْرٍ ولا تَبْل[٢]
شققنا لها فى الدنّ عينًا فأسبلتْ ... كما أخضِلت عينُ الخريدةِ بالكحل[٣]
كـأن فنيقـا بـازلاً شُقّ نحـرُهُ ... إذا أسفرت مِنْها الشُّعاع على الْبُزْل[٤]
ودارتْ علينا الكأسُ من كفّ ظبيةٍ ... مُبَتَّلةٍ حَـوْراءَ كالـرشأ الـطِّفل[٥]
كـأنَّ ظبـاءَ عُكَّفًـا فى رياضهـا ... أباريقُها أو جَسْنَ قعقعةَ النبلِ
وَحَنَّ لنـا عُـودٌ فبـاحَ بِسـرِّهِ ... كَـأَنَّ عليه ساقَ جاريةٍ عُـطل
تضـاحكـهُ طَـوْرًا، وتُبكيـهِ تـارةً ... خدَلَّجَةٌ هَيْفَاءُ ذاتُ شوًى عَبْل[٦]
إذا ما علَتْ منّا ذؤابةَ واحدٍ[٧] ... تمشّت به مَشْىَ المقيّدِ فى الوحْل
فلا نحنُ مِتْنا موتَةَ الـدهر بغتـةً ... ولا هىَ عادَتْ بعد عَلٍّ ولا نَهْل[٨]
سـأنقـادُ للّذات مُتّبـع الهـوى ... لا مضِىَ همًّا؛ أو أصيبَ فتًى مثلى[٩]
هل العيشُ إلاّ أن أروح مع الصِّبَا ... وأَغْدُو وصريعَ الكأس والأعين النُّجْل!

[الطويل]

* * *

قيل: وأدخلَ الفضلُ بن يحيى أبا نواس عند[١٠] الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل:

عُتِّقَتْ فى الدَّن حتّى ... هى فى رِقّـةِ دِينى

[مجزوء الرمل]

أحسِبك زِنديقا! قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يَشْهَدُ لى بخلاف ذلك. قال: وما هو؟ قال: قلت:

---

(١) الذبل: عظام صفر كعظام الفيل.
(٢) الديوان: «بتبل ولا ذحل». والوتر والتبل والذحل بمعنى.
(٣) الديوان: «عين الخريد بلا كحل». والخريد والخريدة: المرأة الحيية المحتشمة.
(٤) الفنيق: الجمل الأبيض، وفى الديوان: «إذا ما استدرت كالشعاع على البزل».
(٥) الديوان: «من كف طفلة». والمبتلة: كاملة الخلق.
(٦) الخدلجة: الحسنة الخلق. والهيفاء: الضامرة البطن؛ وبعده فى الديوان:

إذا مـا اشْتَهَيْنَـا الأقْحُـوان تَبَسَّمَـتْ ... لنَـا عن ثنـايَـا، لا قِصَار وَلَا ثُعْـلِ
وأسْعَـدَهـا الـمزمـارُ يَشْـدُو كـأنّـهُ ... حَكَى نائحاتٍ بثْنِ يبكِينَ مِنْ ثُكْلِ
غَـدَوْنَـا عـلى اللَّذاتِ نجنى ثمـارهـا ... وَرُحْنَـا حَميدِى الْعَيش مُتَّفِقِى الشَّكْلِ
أقَـامَتْ لنَـا الصَّهْبَـاءُ صَدْر قَنَـاتِهـا ... وَمَـالَتْ عَلَيْنَـا بـالخـديعـة والختـل

(٧) الديوان: «ذؤابة شارب».
(٨) بعده فى الديوان:

وسـاقيـةٍ كـالـرِّيمِ هَيْفَـاءَ طَفْـلةٍ ... عيـدَةِ مَهْوَى القُـرْطِ مفعمة الحِجْـل
تُنَـزِّهُ طـرفى فى محـاسِنِ وجـهِهـا ... إذا احْتُسِتِ الطَّاسَاتُ يُغْنى عن النُّقْل

(٩) الديوان: «متبع الصبا».
(١٠) ط: «إلى عندى».

أيّـةَ نـار قـدح القـادحُ ... وأىَّ حَـدٍّ بَلغَ المـازحُ[١] !
لله درُّ الشّيـب من واعظ ... وناصحٍ لـو قُبِلَ النـاصحُ !
فـاغدُ فـما فى الحقّ أُغلوطةٌ ... وَرُحْ لمـا أنـت لـه رائـحُ
مَنْ يتّقِ الله فـذاك الـذى ... سيق إليـه المَتْجَرُ الرابحُ
لايجتـلى لحَوْراءَ من خِدْرِها ... إلّا امـرُؤٌ ميزانُـهُ راجحُ
فـاسمُ بعينيك إلى نسـوةٍ ... مُهـورُهنّ العمـلُ الصـالح

[السريع]

فقال الفضل: يا سيّدى، إنه يؤمن بالبعث، ويَحمِله المُجُونُ على ذكر ما لا يعتقده، ثم أنشده:

لقد طال فى رسم الدّيار بكائى ... وقد طال تَردادِى بها وعنَائى[٢]
كـأنى مُرِيـغٌ فى الديار طريـدةً ... أراهـا أمـامى مـرّةً وورائى[٣]
فلمّا بدا لى اليأس عدَّيتُ ناقتى ... عن الدار واستولى علىّ عزائى
إلى بيت حـانٍ لا تَهِرُّ كـلابـهُ ... علىَّ ولا ينكِرْن طـولَ ثَوائى
فمارُمته حتّى أتى دونَ ما حوتْ ... يمينى وحتّى رَيْطتى وحِـذائى[٤]
وكأسٍ كمصباحِ السماءِ شربْتُها ... عـلى قُبْلةٍ أو مـوْعـدٍ بلقـاءِ
أتَتْ دونَها الأيّـام حتّى كـأنّها ... تساقط نـور من فـوق سماء
ترى ضوءَها من ظاهرِ البيت ساطعًا ... عليـكَ، ولـو غـطّيتَها بغـطاءِ
تبـارَك مَنْ ساسَ الأمـورَ بقُدْرةٍ ... وفضّـل هـارونًا عـلى الخلفـاءِ!
نراكَ بخيرٍ ما انطوينا على التُّقى ... ومـا سـاسَ دُنيـانـا أبـو الأمناءِ
إمـامٌ يخـافُ الله حتّى كـأنما ... يُؤمّـلُ رؤيـاهُ صبـاحَ مسـاءِ
أشمُّ طُـوالُ السّـاعِـدَيْن كـأنمـا ... يُـنـاطُ نِجَـادًا سَيفِـهِ بـلواءِ

[الطويل]

فخلع عليه الرشيد ووصَلَه بعشرة آلاف درهم، والفضلُ بمثلِها؛ فنظر إلى جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميِّت فى ليلتى هذه، فإذا مِتّ فمرْه أن أدفَن فى بطن هذه الجارية! فقال له الرّشيد: خذها لا بارك الله لك فيها!

قال أبو نواس: فأخذتُها وانصرفتُ بمثلِ الشمس حسنًا، وفى منزلى غلام مثلُ القمر، فلقيَنى محمد بن يسير[٥] الشاعر، فقال: أتيتك مهنّئًا بما حَباك به أمير المؤمنين، فقلت: نعمة تتبعها نقمة! فقال: ولم ذاك؟ فقلت: عندى غلام مثل القمر، وهذه مثل الشمس، وإنْ جمعتُها أتخوَّف ما تعلم،

(١) ديوانه ١٩٢، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات.
(٢) ديوانه ٦٢، وروايته: «لقد طال».
(٣) مريغة: من قولهم: أراغ الصيد؛ إذا تتبعه.
(٤) الريطة: الملاءة.
(٥) ط: «بشير» تصحيف.

وإن أفردُت الجارية لم آمَنْ عليها، وغلامي لابدّ منه. قلت: اجْعَلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك إليها. قلت: فلعلَّ الحارس هو المتحرِّس منه! قال: فصيِّرها عند عجوز تثِق بها. قلت: لعليّ أسترعى الذئب!

قال: ثم افترقْنا، فالتقى معه أبو نواس بعد ثلاثة أيام، فقال له: يا محمد بنَ يسير، ما على الأرض شرٌ منك! شاورتُك فى أمر فلم تَفتَح علىّ فيه شيئًا، فلما فارقتُك ازدحم علىّ الرأىُ المصيب. قال محمد: فماذا صنعتَ؟ قال: زوّجتُ الشمسَ من القمر، فحصَّلتهما لأقضىَ بهما وَطَرى؛ قال: كان الشيء عليكَ حلالًا فجعلتَه حرامًا، قال: يا أحمق، أشاوَرْتُك فى الحلال والحرام! إنما قلت: كيف الرأى فى تحصيلهما؟ ثم أنشأ:

زوّجتُ هَاذاكَ بهذِى لكىْ ... أنكــح ثنتــين فثنتــين
أنكـح هذه مـرة ثم ذا ... أدبــرُ رُمْحًـا بين صفّين
متعت نفسى بهــا لــذةً ... يا من رأى مَطلع شمسين!

وحدثنا محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان وهو أمير البصرة،قال: كان بالبصرةِ رجل من بنى تميم، وكان شاعرًا ظريفًا، وكنتُ آنسُ به، فأردتُ أن أخدَعَه[١] [وأستنزله][٢]، فقلتُ: يا أبا نزار، أنت شاعر وظريف، والمأمون أجوَدُ من السحاب الحافل، والريح العاصف، فما يمنعُك منه؟ قال: ما عندى ما أتحمّل به[٣]. قلتُ: أنا أعطيك نجيبًا فارهًا، ونفقة سابغة؛ تخرُج إليه وقد امتدحتَه، فإنك إن حظِيتَ بلقائه صرتَ إلى أمنيَّتك. قال: والله أيّها الأمير، إنى لأظنُّك[٤] صادقًا. قلت: أجل؛ فدعوتُ بنجيبةٍ فارهةٍ، فقال: هذه إحدى الحسنيين[٥]، فما بال الأخرى! فدعوتُ له بثلاثمائة درهم، فقال: وهذه الثانية، ثم قال: أحسبك أيها الأمير قصّرت فى النفقة، قلت: لا، هى لك كافيةٌ إنْ قبضتَ يدكَ عن السَّرَف. قال: ومتي رأيت السَّرَف فى أكابر بنى سعد، فكيف فى أصاغرها! فأخذ النَّجيبة والنفقة، ثم عمِل أرجوزةً ليست بطويلة، فأنشَدَنيها وحذَفَ منها ذِكْرِى، فقلت له: ما صنعتَ شيئًا. قال: وكيف ذلك؟ قلت: تأتى الخليفةَ وأنت وافد، فلا تثْنى على أميرك! قال: أيها الأمير، أردتَ أن تخدعَنى فوجدتنى خَدَّاعا، ولمثلها ضُرب هذا المثل: «من يَنِكْ العيْرَ يَنِكْ نائكا»، والله ما لكرامتى حملْتنى، وجُدْتَ لى بمالك الّذى ما رامه أحد إلاّ جعل الله خدَّه الأسفلَ، ولكنْ لأذكرَك [فى شعرى، وأمدحك عند الخليفة، افهم هذا، قلت: صدقت، فقال: أمّا إذا أبديت ما فى ضميرك، فقد ذكرتك وأثنيت عليك][٦]. قلتُ: فأنشدِنى ما قلت، فأنشدنى.

---

(١) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: «أنفعه».
(٢) من الطبرى.
(٣) الطبرى: «ما يقلنى».
(٤) الطبرى: «ما إخالك أبعدت».
(٥) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: الحسنتين».
(٦) من الطبرى.

فقلت: أحسنت وأَجَدْتَ[١]، فتركني وخرج حتى أتى الشام والمأمون بسَلَغوس[٢]. فأخبَرَني، قال:

بينا أنا في غَدَاةٍ[٣] قرّة، قد ركبتُ نجيبي، ولبست أطْماري، وأنا أريد العسكر؛ فإذا أنا بكَهْل على بغل فارهٍ ما يقرّ قرارُه، ولا يُدرَك خُطاه فتلقّاني مكافحة ومواجهةً وقال: السّلام عليكم – بكلام جَهْوَرِيّ، ولسان بسيط – فقلت: وعليكم السّلام، فقال: قف إن شئت. فوقفت، فتضوّعتْ منه رائحةُ المِسك الأذفر. فقال: مِمن؟ قلتُ: رجل من مُضر، قال: ونحن من مُضَر، ثم ماذا؟ قلتُ: من بني تميم، قال: وما بعدَهم؟ قلت: من بني سعد. قال: هيه! فما أقدمَكَ [هذا البلد][٤]؟ قلتُ: قصدتُ هذا الملك الّذى ما سمعتُ بمثله أندى راحةً ولا أوسعَ باحة، ولا أطوَلَ باعًا، ولا أمدّ يفاعا[٥] منه. قال: فما الذى قصدتَه به؟ قلت: شعرٌ طَيِّبٌ، يلَذّ على أفواه الرّواة، ويحلو في آذان المستمعين. قال: فأنشِدْنيه. فغضبتُ[٦] وقلتُ: ياركيك، أخبرك[٧] أني قصدْتُ الخليفة بشعرٍ قلتُه، ومديح حبّرتُه، فتقول: أنشدْنيه! فقال: وما الذى تأملُ فيه؟ قلت: إن كان على ما ذُكر لى فألفُ دينار، قال: أنا أعطيك ألفَ دينار إن رأيتُ الشِّعرَ جيّدًا، والكلامَ عذْبًا، وأضع عنك العَناء وطول الترداد. متى تصل أنت إلى الخليفة [و][٨] بينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل! قلت: فلى عليك عهدُ الله أن تفعل! قال: لك الله أن أفعل. قلتُ: ومعك مال؟ قال: بغلى هذا خيرٌ من ألف دينار، أنزلُ لك عن ظهره. قال: فغضبتُ وعارضتْني مِرّة بنى سعد، وخفّة أحلامِها، وقلت: ما يساوى هذا البغلُ هذا النجيبَ! قال: فدع عنك هذا، ولك الله أن أعطيَك ألف دينار، فأنشدتُه الأرجوزة، وقلت:

مأمونُ ياذا المِنَنِ الشريفَهْ وصاحبَ الْمَرْتبةِ المنيفَهْ
وقائدَ الكتيبةِ الكثيفَهْ هَلْ لكَ في أرجوزةٍ ظريفَهْ!
أظْرَفَ من فقهِ أبي حنيفَهْ لا والذى أنتَ له خليفَهْ
ما ظُلِمَتْ في أرضنا عَفيفَهْ أميرُنا شِكّتُهُ خَفيفَهْ[٩]
وما احْتَبى شيئًا سِوى الوظيفَهْ فالذئبُ والنّعجةُ في سَقيفَهْ
* واللّصُّ والتّاجرُ في قَطيفَهْ * [الرجز]

فوالله ما أتممتُ إنشادَها حتى جاء زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدُّو الأفُق، وهم يقولون:

---

(١) كذا في الطبرى: وفي تصويبات ط: «ولعنت».
(٢) سلغوس: حصن في بلاد الثغور بعد طرسوس (مراص؛ الاطلاع).
(٣) الطبرى «غزاة»
(٤) من الطبرى.
(٥) الطبرى: «بقاعا».
(٦) كذا في الطبرى، وفي ط: «فمضيت».
(٧) الطبرى: «أخبرتك».
(٨) من الطبرى.
(٩) الطبرى: «مؤنتة».

السَّلام عليك يا أمير المؤمنين! فأخذنى الْقَلَقُ، ونظر إلىّ بتلك الحالَ وشمْلى قد تبدّد فقال: لا بأس عليك! قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أمُعذِرى أنت؟ قال: نعم، ثم التفت إلى خادم فى جانبه وقال له: أعْطِهِ ما معك. فأخرجَ له كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار، وقال: هاكَ، سلامٌ عليك! فكان آخر العهد به[١].

* * *

حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن الحسين بن الضّحاك، قال: دخلتُ أنا ومحمد بن عمرو الرّومىّ دارَ المعتصم بالله، فخرج علينا كالِحًا، فجاء إيتاخ[٢] وقال: المهلون على الباب: مخارق، وعَلّوية، وفلان، وفلان. فقال: اعْزُبْ، عليك وعليهم لعنة الله! قال: فتبسّمتُ إلى محمد وتبسّم إلىّ، فقال المعتصم: ممّ تبسّمت يا حسين؟ قلت: من شىء خَطَر لى. قال: هاته، فأنشدته:

إنْفِ عن قلبك الحزَنْ ... بدُنوٍّ من السّكَنْ
وتمتّعْ بكرٍّ طرْ ... فِكَ فى وجهِهِ الحسنْ[٣]

[مجزوء الخفيف]

فدعا بألفَىْ دينار: ألف لى، وألف لمحمد بن عمرو. فقلت: يا أمير المؤمنين، الشعرُ لى، فما معنى «ألف لمحمد»؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر المُلْهِينَ بالدخول، فأدخِلوا؛ فمازال يومَه ذاك يُنشَد الشعر، ولقد قام يريد البَول، فسمعته يردّده[٤].

* * *

قال أبو العيناء: أنشدَنى المعتصمُ بعقب مدحٍ جَرى ببغداد:

سقانى بعينَيْهِ كأسَ الْهَوى ... فظَلْتُ وبى منه مثل اللَّمَمْ
بعينَىْ مَهاةٍ تبيّنْتُهُ ... وشُنْبٍ عِذابٍ وفَرْعٍ أحَمْ

[المتقارب]

قال أبو العيْنَاء: فتوهّمتُ أنّه يعنى سُرَّ مَنْ رأى، ويكنى عنها بذلك الكلام. فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، قال مرْوان فى جدّك:

قريشُ الأبلجُ ذو البهاءِ ... غيثُ العُفَاة فى غَد الأنْواءِ
* وهم زمامُ الدولة الزَّهْراءِ * [الرجز]

---

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ٣: ١١٤٤ - ١١٤٨ (طبع أوربا).

(٢) هو إيتاخ التركى المعتصمى. كان غلاما خزريا لسلام الأبرش، فاشتراه منه المعتصم، ثم رفعه، ومن بعده الواثق، وضما إليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة؛ وكل من أراد المعتصم أو الواثق أن يقتله قتله، وقتل بذلك كثيرين. ثم تولى الحكم بالديار المصرية من سنة ٢٣٠ - ٢٣٥، ثم كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب بالقبض عليه فى الباطن إن أمكنه؛ فتحايل عليه إسحاق حتى قبض عليه وقيده بالحديد، وقتله عطشا سنة ٢٣٥. وانظر حواشى الأغانى ٧: ١٨٤ (طبعة الدار).

(٣) بعده فى الأغانى:

إن فيه شفاء صد ... رِكَ من لاعجِ الحزَنْ

(٤) الخبر فى الأغانى ٧: ١٨٥ (طبعة الدار).

فقال: قُلْ يا أبا عبد الله فى مدح بنى هاشم لك ولغيرك ، فلقد أصبتَ مقالاً. فأنشدتُه لمَرْوانَ بن أبى حفصة:

إلى مَلِكٍ بَدْرِ الدُّجَى عظيم الفناءِ رفيعِ الدِّعَمْ
قَريع نزارٍ غداةَ الفخارِ وَلَوْ شئْتُ قلتُ جميع الأمَمْ
لَهُ كفّ جودٍ تفيد الغِنَى وكفٌّ تبيدُ بسيْفِ النِّقَمْ
[المتقارب]

فقال: زدنى، فأنشدته:

انتجعى يا ناقُ مُلْك غالبِ[1] قريشَ بَطحاءِ أولى الأهاضب
والرأسُ ممدودٌ على المناكِبِ مدَّ القباطىِّ على المشاجِبِ
[الرجز]

فقال: زدنى، فأنشدتُه:

يا قطْبَ رَجْراجَةِ المَلْحاءِ ومنزلَ البدرِ منَ السماء
* والمجتدى فى السَّنة العَجْفاءِ * [الرجز]

فقال: حسبُك يا أبا عبد الله! ثم التفَت إلى جارية بين يديه فقال: عشرَ بدَر، ووصيفة وفرسًا، ومملوكًا وخمسين ثوبا الساعة! فجىء بذلك كُلِّه، فأعطاه إيّاه وانصرف، فقال له الناس: يا أبا العيناء، ما هذا؟ قال: مالُ الله، علياید عبد الله، الحمد لله، والشكر لأمير المؤمنين مادامت السماء، وما حَملتْ مقلتاى الماء.

* * *

قال أحمد بن أبى طاهر: أخبرَنى مروان بن أبى الجنوب؛ قال: لما استخلِف المتوكلّ بعثت إليه بقصيدة، مدحتُ فيها ابنَ أبى دؤاد، وفى آخرها بيتان ذكرتُ فيهما ابنَ الزّيّات بين يدَى ابن أبى دؤاد، وهما:

وقيلَ لىَ الزّيات لاقَى حِمامَهُ فقلتُ أتانى الله بالفتحِ والنّصر!
لقد حَفَرَ الزيَّاتُ بالغَدْر حُفْرَةً فأُلقِىَ فيها بالخيانة والغَدْر
[الطويل]

فلما صارت القصيدة فى يَدى ابن أبى دؤادَ، ذكر ذلك للمتوكّل، وأنشدَه البيتيْن، قال: أحضرْنيه، قال: هو باليمامة. قال: يُحَمل، قلتُ: عليه دَيْن، قال: كم؟ قلتُ: ستّة آلاف دينار. قال: يُعطاها، فأعطيتُ ذلك وحُملتُ ، وصرتُ إلى سُرّ من رأى؛ وامتدحتُ المتوكلّ بقصيدةٍ أقول فيها:

رحلَ الشبابُ وليتَهُ لم يَرحَلِ والشيبُ حلّ وليتَه لم يحلُلِ
[الكامل]

---

(١) فى الأصلين: «ملوك».

فلما صرتُ من القصيدة إلى هذين البيتين:

كـانتْ خِلافـةُ جَعْفَرٍ كنبـوّةٍ ... جاءَتْ بلا طلبٍ ولا بتبَخُلِ
وهبَ الإلٰهُ لهُ الخلافة مثلمَا ... وهبَ النُبـوّةَ للنبىّ المـرسَـلِ

أمر لى بخمسين ألف درهم.

* * *

قال: وكان علىّ بنُ الجَهْم يقع[١] فى مروانَ ويثلبه، حَسَدًا لمنزلَتِهِ من أمير المؤمنين[٢]. فقال له المتوكّل: يا علىّ، أيُّكما أشعَر، [أنت أو مروان][٣]؟ قال: أنا أشعر منه. قال: ما تقول يا مروان؟ قال: إذا حقّقت شعرك فى أمير المؤمنين، لم أبال بمن زَيَّف شعرى. ثم التفت مرْوان إلى علىّ؛ فقال: يا علىّ، أنت أشعر منّى! قال: نعم، تشكّ فى ذا! قال: [نعم أشكّ وأشكّ و][٤] أمير المؤمنين بينى وبينك، قال: هو يحابيك، فقال المتوكلّ: هذا مِن عِيِّك، ثم التفت إلى حَمدون النَّديم، فقال: ذا حَكَمٌ بينكما، فقال: يا أمير المؤمنين. تركتنى بين لَحْيَىِ الأسد، قال: لابدّ أن تصدقنى، قال: يا أمير المؤمنين، أعرفهما فى الشِّعر أشعَرُهما. فقال: المتوكّل: يا مَرْوان، هِجْهُ، قال: لا أبلؤه، ولكن يقول: فقال علىّ: قد كظّنى النَّبيذ ولست أقدر أن أقول؛ قال مروان: لكنى أقول:

إن ابْنَ جَهْمٍ فى المغيبِ يَعيبُنى ... ويقول لى حَسَنًا إذا لاقانى[٥]
وإذا التقينا ناكَ شِعرى شعرَهُ ... ونـزَا على شَيْـطانِـهِ شَيـطانى[٦]
إنَّ ابنَ جَهْمٍ ليسَ يرحمُ أُمَّه ... لـو كانَ يَـرحَمُهـا لمـا عـادانى
[الكامل]

فقال المتوكل: يا مروان، بحياتى لا تقصِّر، فقال:

يـاعلىُّ يـابنَ بَـدْرٍ[٧] ... قـلتَ أمى قُـرَشيّـة

---

(١) الأغانى «يطعن».
(٢) الأغانى: «ويثلبه حسدًا له على موضعه من المتوكل».
(٣) من الأغانى.
(٤) من الأغانى.
(٥) بعده فى الأغانى:

صَفرَتْ مهابتُه وعُظِّمَ بطنُه ... فكـأنما فى بـطنـه وَلـدانِ

(٦) فى الأغانى: فضحك المتوكل والجلساء معه. وانخزل ابن الجهم؛ فلم يكن عنده أكثر من أن قال: جمع حيلة الرجال وحيلة النساء، فقال له المتوكل: هذا أيضا من عيِّك ويردك؛ إن كان عندك شىء فهاته، فلم يأت بشىء فقال لمروان: بحياتى إن حضرك شىء فهاته، ولا تقصر فى شتمك، فقال مروان:

لَعَمْـرُك ما الجهْمُ بن بَـدْر بشاعِـر ... وهـذا علىٌّ بعـده يَـدّعِى الشعـرا
ولكنْ أبى قـد كـان جـارًا لأمّـهُ ... فلما ادّعى الأشعـار أوهمنى أمْـرًا

قال: فضحك المتوكل، وقال: زده بحياتى.. ثم ساق الأبيات.
(٧) الأغانى:

* يا بْنَ بَدْرٍ يا عَليّهْ *

قلتُ مـا ليس بحقٍّ فـاسكتى يـا نَبَـطِيَّـهْ
اسْكتى يا بنت جَهْمٍ اسكتِى يـا حَلَقِيَّـهْ[١]
[مجزوء الرمل]

قال[٢]: فجعل المتوكل يضرب برجليه ويَضْحك، وأمر لى بألف دينار[٣].

* * *

قال مروان: صرت إلى المتوكل فقلت:

سقى الله نجـدًا والسَّـلامُ عـلى نجـدِ ويـاحبـذا نجـدٌ عـلى القـرب والبعـد!
نـظرتُ إلى نـجـدٍ وبـغـدادُ دونَها لعَـلِّى أرى نجـدًا، وهيهـات من نجـد!
ونـجـدٌ بهـا قـومٌ هـواهُـمْ زيـارتى ولاشـىء أحْـلَى من زيـارتِهِـمْ عنـدى
[الطويل]

قال: فلمّا أتممت إنشادها أمر لى بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوبًا وثلاثةٍ من الظَّهر: فرسٍ وبغلة وحمارًا، فما برحتُ حتى قلتُ فى شكره:

تخيَّرَ ربُّ الناسِ للناسِ جعفرًا فملّكه أمـرَ العبـاد تخيُّـرَا
[الطويل]

فلما صرت إلى هذا البيت:

فأمْسِكْ ندَى كفّيك عنِّى ولا تزد فقد خفْت أن أُطْغَى وأن أتجَبّرا

قال: لا، والله لا أمسك حتى أغْرقك بجُودى، ولا تبرح أو تسأل حاجةً. قلت: يا أمير المؤمنين، الضيعة التى أمرتَ بإقطاعى إيّاها من اليمامة، ذكر ابن المدَبّر أنها وقفٌ من المعتصم. قال: فإنى أُقْبِلَكها[٤] بخراج درهم، قلت: لا يحسن أن يؤدّى درهم. فقال ابن المدبِّر: فألف درهم. قلت: نعم، فأمضاها لى: ثم قال: ليست هذه حاجة؛ قلت: فضياعى التى كانت لى وحالَ ابن الزيّات بينى وبينها، فأمر بردّها[٥].

* * *

(١) يقال: أتان حلقية، إذا تداولتها الحمر فأصابها داء فى رحمها.

(٢) فى الأغانى: «فأخذ عبادة هذه الأبيات فغناها على الطبل وجاوبه من كان يغنى، والمتوكل يضحك ويضرب بيديه ورجليه؛ وعلى مطرق كأنه ميت، ثم قال: على بالدواة. فأتى بها فكتب:

بـلاءٌ لـيس يشـبـهـه بـلاءٌ عـداوةُ غـيرِ ذى حسَبٍ ودينِ
يبيحـك مِنْـهُ عِـرْضًـا لم تَصُنْـهُ ويـرتعُ مِنْـكَ فى عِرْضٍ مَصُونِ
[الوافر]

(٣) الخبر بتمامه فى الأغانى ١٢: ٨١ - ٨٣ (طبعة الدار).

(٤) أقبلكها: أى ضمنتها لك والتزمت بذلك، والاسم القبالة.

(٥) الخبر فى الأغانى ١٢: ٨٠، ٨١ مع اختلاف فى العبارة.

قال: وقال أبو يعقوب الخطّابيّ: كنتُ جالسًا عند معن بن زائدة، وإذا عليه إزار يساوى أربعةَ دراهم، فقال: يا أبا يعقوب، هذا إزارى؛ وقد قسمت العام فى قومك خاصة أربعين ألف دينار. فبينا نحن نتحدّث؛ إذا أبصر أعرابيا يحُطّ به الآلَ من خَوْخَةٍ مشرفة له على الصحراء، فقال لحاجبه: إن كان هذا يريدنا فأَدْخِلْه، فدخل الأعرابىُّ وسلّم؛ وأنشأ يقول:

أصلحكَ الله قلَّ مَا بيَدِى   فلا أُطيقُ العيالَ إذْ كَثرُوا
ألحّ دَهرٌ رَمَى بكَلْكَلِهِ   فأرسلونى إليكَ وانتظروا
[المنسرح]

قال: فاضطرب وقال: أرسلوك وانتظروا! يا غلام، ما فُعل بغلّتنا الفلانيّة؟ قال: حاضرة، قال كم: هى؟ قال: ألف دينار، قال: اطرَحْها إليه، ثم قال: اذهب إليهم بما معك، ثم إذا احتجتَ فارجع.

* * *

وعن أبى يعقوب الخطابىّ قال: دخل أعرابىّ معه ظبىٌ صغير[1] فى نِطْع إلى معن بن زائدة، وقال:

سَمَّيتُ مَعنًا بمعن ثم قلتُ لهُ   هذا سَمِىُّ امرىءٍ فى الناس محمودِ
أنتَ الجوادُ ومنكَ الجودُ أوّلُه   لابل يمينك منها صورة الجودِ
[البسيط]

فأعطاه ألف دينار.

* * *

قال: ودخل يزيدُ بن مَزْيَد مسجدًا باليمن، فوجد فى قبلته مكتوبًا:

مَضى معنٌ وخلّانى بِبثّى   على مَعنِ بن زائدةَ السّلامُ
[الوافر]

فسأل عن قائله، فإذا هو معهم، فقال: يا غلام، أمعك شىء؟ قال: نعم. ألف دينار، قال: فادفَعْها إليه، فخرج الرجل وهو يقول: رحم الله أبا الوليد! وَصَلنى حيًّا وميّتًا.

* * *

وحدثنا جعفر بن منصور بن المهدىّ قال: حدثنى أبى قال: حجّ المهدىّ فنزل زُبالَة[2]، فدخل حسين بن مطير الأسدىّ عليه، فقال:

أضحتْ يمينُك من جُودٍ مُصوَّرَةً   لا بَلْ يمينُكَ منها صُورةُ الجود
منْ حُسن وجهك تضْحِى الأرضُ مُشرقَةً   ومن بَنَانِكَ يجْرى الماء فى العُودِ
[البسيط]

(١) ك: «ومعه صبى».
(٢) زبالة: موضع بطريق مكة.

فقال له المهدىّ: كذبت! قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لقولك فى معن بن زائدة:

ألّما على مَعنٍ وقُولا لقَبْرِهِ　　سَقتْك الغَوادِى مَرْبَعًا ثُمّ مَربعا[١]
فيا قَبْرَ معنٍ كيف واريْتَ جُودَهُ　　وقد كان منه البَرُّ والبحرُ مترَعَا!
فلما مَضى مَعْنٌ مضى الجودُ وانقضى　　وأصبحَ عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعَا
فكنتَ لدار الجُودِ يا مَعن عامرًا　　فقد أصبحتْ قفرًا من الجود بلْقَعَا
أبى ذكر معنٍ أن يُميتَ فعالَهُ　　وإن كان قد لاقى حِمامًا ومصرعَا
فتى عِيش فى معروفه بعد مَوْتِهِ　　كما كان بَعْدَ السَّيل مَجراه مَرتَعا
[الطويل]

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما معنٌ حسنةٌ من حسناتك، وفَعْلةٌ من فعُلاتك، فأمر له بألف دينار، ثم قال: سل حاجتك، فقال:

بيضاءُ تَسْحبُ من قيامٍ فَرعَها　　وتَغيبُ فيه وهو جَعْدٌ أسحمُ
فكأنها فيه نهارٌ مشرقٌ　　وكأنه ليلٌ عليها مظلِمُ
[الكامل]

قال: خذ بيَدِها - الجارية كانت على رأسه[٢] - فأولدها مُطَير بن الحسين بن مطير.

قال: ودخل مروان بنُ أبى حفصة على جعفر بن يحيى يسأله إيصالَه إلى الرشيد، وأنه قد مدحه بقصيدة ينشدها إيّاه، وقد كان جعفر وصله بثلاثين ألف درهم، كتب له بها إلى صالحٍ الصَّيْرفىّ، وكانت فيها دراهم طَبَريّة؛ فقال:

ثلاثون ألفًا كلُّها طَبَريَّةٌ　　دَعا لى بها لما رأى الصَّكَّ صالحُ[١]
دَعا بالزُّيوفِ الناقِصاتِ وإنّما　　عطاءُ أبى الفضل الجيادُ الرواجِحُ[٢]
فقلتُ له لّما دَعا بزُيوفِهِ:　　أألجِدُّ هذا منكَ أم أنت مَازِحُ؟

فلمّا أنشد ذلك جعفرًا ضحك، وقال: أنشِدنى مرثيّتَك فى معن بن زائدة، فأنشَدَه:

كأنَّ الشمسَ يومَ أصيبَ معنٌ　　من الظلماءِ مُلْبَسةٌ جِلالاَ
وكانَ النّاسُ كلُّهمُ لمعْنٍ　　إلى أن زارَ حُفرَتَهُ - عِيالاَ
[الوافر]

فقال جعفر: هل أثابَكَ على هذه المرثيّة أحدٌ من وَلَده وأهلِه؟ قال: لا، فلو كان حيًّا ثم سمِعَها منك بكم كان يُثيبُك؟ قال: بأربعمائة دينار، قال: أظنّ أنه كان لا يرضاها لك. قد أمرْنا لك عن

---

(١) ديوان الحماسة بشرح التبريزى ٢: ٣٩٢، مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات.
(٢) ك: «وكان على رأس المهدى جارية فقال له: خذ بيدها، فأخذها».
(٣) فى الأصول: «دعانى».
(٤) زيوف: جمع زائف؛ وهو الدرهم الردىء المردود لغش فيه.

معن بأربعة كما ظننتَ، وزدناك[١] مِثلَها كما ظنّنّاه به فيك، فاغْدُ على الخازن لقبضها منه.

قال[٢]: ودخل أعرابىّ على داود بن يزيدَ[٣] بالسِّنْد، فقال: أيّها الأمير، تأهّب لمديحى؛ فتأهّبَ، ثم قال: لئن أحسنتَ لأحسنِنَّ إليك، ولئن أسأتَ لأرُدّنّ شِعرَك عليك، فقال:

أمِنتُ بداودٍ وجودِ يمينِه ... مِنَ الحدَثِ المخْشىِّ والبؤس والفقْر
وأصبحتُ لا أخْشَى بداودَ نَبْوةً ... ولاحدَ ثانًا إذْ شَدَدْتُ به أزْرى[٤]
فما طلحةُ الطَّلْحاتِ ساواه فى النَّدَى ... ولا حاتمُ الطائى ولا خالدُ القَسْرِى
لـه حُكْم لقمانٍ وصورةُ يُوسفٍ ... ومُلْكُ سُليمانٍ وصدقُ أبى بكـر
فتًى تهرُبُ الأموالُ من طَلِّ كفِّه ... كما يهرُبُ الشيْطانُ من ليلةِ القدر[٥]
[الطويل]

فقال: يا أعرابىّ، أحسنتَ فاحتكِمْ، وإن شئتَ فاردد الحكم إلىَّ. فقال: ما عند الأمير ما يسعه حكمه، فقال: أنت فى هذا أشعر، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

* * *

قال: ودخل محمد بن الجَهْم على المأمون، فقال: أنشِدْنى أحسن ما سمعتَهُ فى المديح، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قوله:

تَجودُ بالنفسِ إذ ضَنَّ الجوادُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود[٦]
[البسيط]

فقال: أنشِدْنى أخبثَ ما سمعتَه فى الهجو، فقال: قوله:

قَبُحَتْ مَناظِرُهم فحينَ خَبَرْتُهُمْ ... حَسُنت مناظرُهم لقبح المخْبَرَ[٧]
[الكامل]

قال: فأنشِدْنى أحسنَ ما سمعتَه فى المَراثى، فقال: قوله:

أرادُوا ليُخْفوا قبرَهُ عن عَدُوِّهِ ... فَطيبُ ترابِ القبرِ دلَّ على القَبْرِ[٨]
[الطويل]

ومثله أيضًا:

على قبرِهِ بين القبور مَهابَةٌ ... كما قبْلَه كانت على ساكن القبر
[الطويل]

(١) ل: «وزودناك».
(٢) ك: «قيل».
(٣) الخبر فى العقد ١: ٢٨٩؛ وفيه «داود بن المهلب».
(٤) العقد: «من الحدثان إذ شددت».
(٥) العقد: «من جود كفه».
(٦) لمسلم بن الوليد، ديوانه ١٦٤.
(٧) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢١.
(٨) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢٠.

قال: فأنشِدْنى أحسنَ ما سمعْتَهُ فى الغَزل، قال: قوله:

حُبٌّ مُجِدٌّ وحبيبٌ يلعبُ وأنت مُلْقًى بينَهْم مُعذَّبُ[١]

[الكامل]

فاستحسن الأبيات، ثم أمر بتقليدى الصَيْمَرة والسِّيرَوَان ومهرجان قذق، والدِّينَورَ ونهاوَند. فانصرفتُ من عنده بولاية الجَبَل.

(١) لمسلم، ديوانه ٣٠٥.

مسَاوئ منْع الشعراء وَالبخل

قيل: كان أبو عطاء السّندىّ بباب أمير المؤمنين أبى العباس، وبنو هاشم يَدخلون ويَخرُجون، فقال:

إنّ الخيارَ منَ البريَّة هاشمٌ ... وبَنو أميَّةَ أرزلُ الأشرارِ
وبنو أميّةَ عودُهم من خِروَع ... وهاشم فى المجدِ عودُ نُضارِ
أمّا الدُّعاةُ إلى الجِنانِ فهاشمٌ ... وبنُو أميّةَ من دُعاة النارِ
وبهاشمٍ زَكَت البلادُ وأعشبتْ ... وبنو أميّة كالسّراب الجارى

فلم يؤذَن فى الدخول على أبى العباس، ولم يصله أحد من بنى هاشم، فولّى وهو يقول:

ياليتَ جوْرَ بنى مَرْوان عادَ لنا ... وأن عدلَ بنى العبّاس فى النّارِ

* * *

قال: وقال المؤمّل المحاربّى: شخصتُ إلى المهدىّ؛ وهو بالرىّ، فامتدحتهُ فأمر لى بعشرين ألف درهم، فرُفع الخبر إلى المنصور، فبعث قائدًا إلى جسر النَّهْرَوان يَسْتِقرئ[1] القوافل، فلما وردتُ عليه قال: من أنت؟ قلت: أنا المؤمل، أقبلت من عند الأمير من الرَّى، فقال: إيّاك أرَدْتُ، ثم أخذ بيدى فأدخلنى على المنصور وهو بباب الذّهب، فقال: أتيت غلامًا غِرًّا فخدعته فقلت: بل أتيت غلامًا غِرًّا كريمًا فخدعتَه فانخدع. فقال: أنشِدْنى ما قلتَه فيه، فأنشدْتُه:

هو المهدىُّ إلّا أنّ فيه ... مَشابهَ صورَةِ القمر المنير
تَشَابهَ ذا وذا فَهُما إذا ما ... أتارا يُشْكِلَان على البصير
فهذا فى الظلام سِراجُ ليلٍ[2] ... وهذا بالنَّهار سِراجُ نورِ
ولكنْ فضّل الرحمنُ هذا ... على ذا بالمنابر والسَّرير
وبالمُلك العزيز فذا أميرٌ ... وما ذا بالأمير ولا الوزير
ونقْصُ الشهر يُخْمِدُ ذا وهذا[3] ... مُنيرٌ عند نقصان الشهور
فيا بنَ خليفَةِ الله المصفّى ... به تَعلو مُفاخَرَة الفَخور
لَئِنْ فتّ المُلوك وقد توافَوْا ... إليكَ من السُّهُولةِ والْوُعُور
لقد سَبَقَ الملوكَ أبوك حتى ... تراهُمْ بين كابٍ أو أسير[4]
وجئتَ وراءَهُ تجرى حثيثًا ... وما بكَ حين تجرى من فتورِ

---

(١) ط: «يستبرئ».
(٢) أمالى الزجاجى: «نار».
(٣) أمالى الزجاجى: «نعل».
(٤) أمالى الزجاجى: «بقوا من بين كاب».

فقال الناسُ: ما هذانِ إلاّ كما بين الخليق إلى الجَدِير[(١)]
فإن بلغَ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ فقد خُلِق الصغيرُ من الكبيرِ

فقال: ما أحسنَ ما قلتَ! ولكن لا يساوى ما أخذتَ. يا ربيع، خذ منه ستّة عشر ألفًا، وخلّه وما سواها. قال: فحطّ والله الربيع ثقَلى[(٢)] حتى أخذ منّى ستّة عشر ألفًا، فما بقيتْ معى إلاّ نُفَيْقَةٌ، فآليتُ عَلى نفسى ألاّ أدخُلَ العراق وللمنصور بها ولاية. فلمّا بلغنى موتُ المنصور، واستخلافُ المهدىّ قدمتُ بغدادَ؛ وقد جَعَل المهدىُّ على المظالم رجلًا يقال له: ابن ثَوْبان، فرفعتُ إليه قِصَّةً أذكر فيها خبرى، فعرضها على المهدىّ، فضحك حتى استلْقَى وقال: هذه مَظْلَمَةٌ أنا بها عارف، رُدّوا عليه مالَه، وزِيدُوا له عشرين ألفًا. فأخذتُها وانصرفْتُ[(٣)].

* * *

قيل: ودخل عَوْنٌ على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا جريرٌ بالباب يريد الدخولَ عليك فقال عُمَر: ما أدرى أنّ أحدًا من أمّةِ محمد صلّى الله عليه وسلّم يُحجَب عنّى! قال: إنّه يريد إذنًا خاصًّا، قال: أدخِلْه، فخرج عَوْن وأخذ بيده فأدْخَلَه، فشكا إليه طولَ المُقام وشدَّة الحال، وإلحاحَ الزّمان، وجَهْدَ العيال، وسأله أن يأذن له فى إنشاده شِعْرًا، فقال: إنَّ أمير المؤمنين لفى شُغْل عن الشِّعر، فقال: إنها رسالةٌ من أهل الحجاز، قال: هاتِها، فقال:

قد طالَ قَوْلى إذا ما كنت مُجْتَهِدًا يارِبِّ عافِ قَوامَ الدِّين والبَشَرِ[(٤)]
خليفَةُ الله ثم الله يحفظُهُ عند المُقام وإمَّا كان فى السَّفَرِ
إنا لنَرْجُو إذا ما الْغَيْثُ أخلَفَنا من الخليفة ما نَرجُو منَ المطرِ
نال الخلافةَ إذْ كانتْ له قدَرًا[(٥)] كما أتى ربَّهُ موسى على قدَرِ
مازِلْتُ بعدَكَ فى دارٍ تُؤَرِّقنى[(٦)] قد طالَ فى الحىّ إصعادى ومنْحَدَرِى
أأذكُرُ الجهْدَ والبلوى التى نزلتْ أم قد كفانى الذى نُبِّئْتَ من خبرى
كَمْ بالمواسمِ منْ شعثاءَ أرْملةٍ ومن يتيم ضعيف الصوت والنَّظرِ!
أمْسَى حزينًا يَبكى فقْدَ والدِه كالفرْخِ فى العُشّ لم ينهض ولم يَطِرِ
إن تَنْسَهُ عنه فمن يرْجو لفاقته أوتُنْحِ منها فقد أنحَيت منْ ضَرَرِ!

---

(١) أمالى الزجاجى: «بمنزلة الخليق».

(٢) كذا فى الطبرى والأغانى والزجاجى، وفى الأصول: «بغلى».

(٣) الخبر مع اختلاف فى الرواية، فى الأغانى ١٩: ١٤٧، ١٤٩، وأمالى الزجاجى ٦٠ - ٦٢، وتاريخ الطبرى ٣: ٤٠٦ - ٤٠٨ (طبع أوربا).

(٤) ديوانه ٢٧٤ - ٢٧٦، ومطلعها:

لِجَّتْ أمامَةُ فى لومى وَمَا عَلِمتْ عَرْض السَّماوَة روحاتى ولا بُكَرى

وأبيات منها مع الخبر فى الأغانى ٨: ٤٧ - ٤٩ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الروايات.

(٥) كذا فى الديوان والأغانى، وفى ط: «بذ الخلافة أم كانت».

(٦) الأغانى والديوان: «تعرقنى» أى تقفره ولا تترك له شيئًا.

أنت المبارَكُ والمهديّ سيرتُهُ ... تعصى الهوى وتقوم الليل بالسُّورِ
ما ينفع الحاضرُ المجهودُ بادِيَنَا ... ولا يعودُ لنا بادٍ على حَضَرِ
هذه الأراملُ قد قضّيت حاجتها ... فمنْ لحاجَةِ هذا الأرْمَل الذكَرِ!
الخيرُ مادُمتَ لا يفارقنا ... بُوركت يا عُمَر الخيرات من عُمرِ

فبكى عمر، ثم رفع رأسه، وقال: ما حاجتُك يا جرير؟ قال: حاجتى ما عوّدْتنى الخلفاء قَبْلَكَ قال: وما ذاك؟ قال: أربعمائة من الإبل برُعاتها وتوابعها من الحُمْلان والكُسَى. قال له عمر: أمن المهاجرين أنت؟ قال: لا، قال: فمن الأنصار؟ قال: لا، قال: فممَّن أنت؟ قال: من التابعين بإحسان. قال: إذَنْ نُجرِى عليك كما نُجرى على مثلك، قال: فإنى لا أريد ذاك، قال: فما أرى لك فى بيت المال حقا، قال: إنما جئت أسألك من مالك، قال: فإن لى كسوة ونفقة وأنا أقاسمكهما، قال: بل أوثرك وأحمدك يا أمير المؤمنين. فانصرف من عنده وهو يقول:

وجدت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيا[1]

[الطويل]

ولبعض الشعراء فى مثله:

إنّ حرامًا قبولُ مِدْحتنا ... ومنعُ ما يُرْتجى من الصّفَد
كما الدنانيرُ والدراهم فى الصّر ... فِ حرامٌ إلّا يدًا بيَدِ

* * *

أبو نجدة فى مثله:

فلّما أنْ بلوْناكَ ... ولم نلقَك بالناشطْ
أطَعنا فيك ميمونًا ... فصوّرناك فى الحائط
إذا لم تكُ نفّاعًا ... فأنتَ النازحُ الشاحطْ
سَواءٌ أنتَ فى عينى ... بجَيٍّ كنتَ أم واسطْ[2]

* * *

وروى فى الحديث قال: «لا يجتمع الشُّحّ والإيمانُ فى قلب عبدٍ أبدًا».

ويقولون: الشَّحيح أعذرُ من الظالم، وأقسم الله جلّ وعزّ بعزَّته لا ساكنه بخيلٌ.

وقال النبىّ ﷺ: «من فُتح له بابه من الخير فلينتهزْه، فإنه لا يدرى متى يُغلق عليه».

وقال الشاعر فى ذلك:

ليس فى كلّ ساعةٍ وأوانِ ... تَتَهيَّا صنَائعُ الإحسانِ

---

(١) قبله:

تركت لكم بالشام حَبْل جماعةٍ ... أمين القوى مستحصِد العَقْدِ باكيا

(٢) جى: اسم مدينة أصبهان القديمة، وواسط: مدينة بين الكوفة والبصرة، وفى ط: «بحى» تصحيف.

فإذا أمكنتْ تقدَّمتُ فيها ... حَذَرًا من تعذُّر الإمكان

[الخفيف]

* * *

وسئل بعضُ الحكماءِ: مَنْ أكيسُ الناس فى زماننا؟ فقال: ابن أبى دواد حيث يقول فيه الشاعر:

بدا حينَ أثْرَى بإخوانه ... فَفَلَّل عَنْهُمْ عَنْهُمْ شَبَاةَ الْعَدَمْ

وحذَّره الحَزْمُ صَرْفَ الزَّمان ... فبادَرَ قَبْلَ انتقالِ النِّعَمْ

فليس وإن بَخِلَ الباخلو ... ن يقْرَعُ سِنًّا لَهُ مِنْ ندمْ

ولا ينكُتُ الأرضَ عند السؤال ... ليمنعَ سُؤَّاله عن نَعمْ

ولكن يُرَى مُشرقًا وجهُهُ ... ليَرْتَعَ فى مالِه مَنْ عَدِمْ

[المتقارب]

وفصْل لبعضهم فى هذا المعنى:

إنَّ لأيام القُدرة على الخير غنائم فاصطنعها ما دامت راهنةً لديك وأنت منها متمكِّنٌ؛ قبل أن تنقضى عنك.

* * *

وفى المثل السائر فى البُخل: «هو أبخل من مادر»، وهو رجل من بنى هلال بن عامر، بَلَغ مِنْ بخله أنه سقى إبَله فبقىَ فى أسفل الحوض ماءٌ قليل، فسَلَح فيه ومدَّر الحوض[1]. فسمِّى مادرًا.

* * *

وذكروا أن بنى فزارة، وبنى هلال تنافروا إلى أنس بنَ مُدرك وتراضَوْا به، فقالت بنو هلال: يا بنى فزارة، أكلتم أيْرَ الحمار، فقال بنو فزارة: [أكلناه و][2] لم نعرفْه. وكان سبب ذلك، أن ثلاثة أنفار اصطحَبُوا: فزارىّ وتغْلبى، وكلابىّ، فصادوا حِمارَ وحشٍ، فمضى الفزارىُّ فى بعض حوائجه، فطبَخَاه، وأكلاه، وخبأ للفزارىّ أير الحمار، فلمّا رجع قالا له: قد خبأنا لك فكُلْ، فأقبَل يأكل ولا [يكاد][2] يُسيغه، فجعلا يضحكان، ففَطن وأخذ السيفَ وقام إليهما، فقال لهما: إن أكلتُماه[3] وإلاّ قتلتُكما. فامتنعا؛ فضَرب أحدَهما فأبان رأسَه وتناوَله الآخر فأكل منه، فقال فيهم الشاعر:

نَشَدْتكَ يا فزَارَ وأنتَ شيخٌ ... إذا خُيِّرْتَ تخطئُ فى الخيار

أصيْحانيّة أُدِمَتْ بسمْنٍ[4] ... أحَبُّ إليكَ أمِ أيْرُ الحمارِ؟

(١) مدر الحوض: وضع فيه القدر.

(٢) من مجمع الأمثال.

(٣) مجمع الأمثال: «لتأكلانه أو لأقتلنكما».

(٤) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة، نسب إلى صيحان، وهو كبش كان يربط إلى نخل المدينة.

بلى أيْـرُ الحمـار وخُصيَتـاهُ أحبُّ إلى فـزَارة مـن فـزَارِ[١]
[الوافر]

فقالت بنو فزارة: منكم يا بنى هلال من سَقَى إبلَه، فلما رويتْ سَلَح فى الحوض ومَدَره بُخلاً. فقضى أنس بن مُدْرك على الهلاليّين، وأخذ الفزاريُّون منهم مائة بعير، وكانوا تراهنوا عليها[٢].

وفى بنى هلال يقول الشاعر:

لقد جُلِّلتْ خِزْيًا هلالُ بنُ عامر بنى عامرٍ طُرًّا بسَلْحَةِ مادِرِ[٣]
فأفٍّ لكُمْ لا تذكروا الفَخْرَ بعدها بنى عامرٍ، أنتم شِرارُ المعاشر
[الطويل]

* * *

وفى المثَل: «هو أبخَلُ من نار الحُبَاحِب»، وهو رجل كان فى الجاهليّة، من بُخله أنه كان يُسرج السراج، فإذا أراد أحدٌ أن يأخذ[٤] منه أطفأه؛ فضرب به المثل[٦].

ومنهم صاحب نجيح بن سُليف اليَرْبوعىّ، فإنه ذكر أن نَجِيحًا خرج يومًا إلى الصّيد، فعَرَض له حمارُ وحش، فاتّبعه حتى دفع إلى أكَمة، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد، فى أطمار، بين يديه ذهب وفضّة ودُرّ وياقوت، فدنا منه نَجيح فتناول منها بعضَها، فلم يستطع أن يحرّك يده حتى ألقاها، فقال: يا هذا، ما الّذى بين يديك؟ وكيف تستطيع حمله؟ ألك هو أم لغيرك؟ فإنّى أعجب ممّا أرى؛ أجوادٌ أنتَ فنجود لنا، أم بخيلٌ فأعذِرك؟ فقال الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين؛ وهو سعد بنُ خَشْرَم بن شمّاس، فأتنى بسعد يعطك ما تشاء.

فانطلق نجيحٌ مسرعًا قد استطير فؤادُه حتى وصل إلى محلّته، ودخل خِباءَه، فوضع رأسه ونام لما به من الغمّ، لا يدرى مَن سعد! فأتاه آت فى منامه فقال لَهُ: يا نجيح، إنّ سعد بن خَشْرَم فى حىّ محلّمٍ، من ولد ذُهل بن شيبان. فخرج وسأل عن بنى محلّم، ثم سأل عن خَشْرَم، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه، فحيّاه نجيح، فردّ عليه، فقال له نَجيح: من أنت؟ قال: خَشْرم بن شماس؛ قال: وأين ابنك؟ قال: خرج فى طلب نجيح بن سُليف اليربوعىّ، وذلك أنّ آتيًا أتاه فى منامه فحدّثه أنّ مالاً فى نواحى بنى يربوع، لا يعلَم به إلّا نجيح، فضرب نجيح بطنَ فرسه وهو يقول:

أيطلُبُنى مَنْ قد عَنـانى طِلابُـهُ فيالبتنى ألقاكَ سعْدَ بن خَشْرَمِ!
أتيتَ بنى يـربوعَ تـطلُبنى به وقد جئتُ كىْ ألقاك حىَّ محلّمِ
[الطويل]

(١) فى مجمع الأمثال: «فحذف الهاء من فزارة كما تحذف فى الترخيم، وإن كان هذا فى غير النداء».
(٢) الخبر فى مجمع الأمثال للميدانى ١: ١١٢، والمحاسن والأضداد ٨٧، ٨٨.
(٣) مجمع الأمثال ١: ١١٢.
(٤) ك: «يـرج منه إنـسان».
(٥) المحاسن والأضداد ٨٧.

فلما دنا من محلّته استقبل سعدًا فقال له: أيها الراكبُ، هل لقيتَ سعدًا فى بنى يربوع؟ قال: أنا سعد فهل تَدُلّ على نَجِيح! قال: أنا نجيح، وحدِّثه بالحديث؛ ثم قال: الدَّالّ على الخير كفاعله - وهو أوّل من قاله - فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان، فتوارى الرجل حين أبصرَهما، وترك المال، فأخذه سعد كلَّه، فقال له نَجِيح: يا سعد، قاسِمْنى، فقال له: اطوِ عن مالى كَشْحًا. وأبى أن يُعطيه، فانتضى نجيح سيفَه، فجعل يضربه حتى بَرَد، فلما وقع قتيلا تحوّل الرجل الحافظ للمال سعلاةً فأسرع فى أكل سعد، وعاد المالُ إلى مكانه، فلما رأى نجيح ذلك، ولى هاربا إلى قومه[١].

* * *

قال: وكان أبو عُمَيس بخيلًا، فكان إذا وقع الدّرهم فى يده نَقَره بإصبعه، ثم يقول له: كم من مدينة قد دخلتَها، ويد قد وقعتَ فيها! والآن استقرّ بك القرار، واطمأنّت بك الدار، ثم يَرمى به فى صندوقه، فيكون ذلك آخر العهد به.

قيل: ونظر سليمان بن مُزاحم إلى درهم فقال: فى شِقٍّ «لا إله إلّا الله»، وفى شِقّ: «محمد رسول الله» ﷺ، ما ينبغى أن يكون هذا إلّا معاذة؛ وقذَفَه فى صندوقه[٢].

* * *

وذكروا أنه كان بالرىّ عاملٌ على الخراج يقال له: المسيَّب، فأتاه شاعرٌ فامتدَحه فسَعَل سُعلةً فضَرَط، فأنشأ الشاعر يقول:

أتيتُ المسيَّبَ فى حـاجَـةٍ ... فـما زال يسعُلُ حتَّى ضَـرَطْ
فقال غَلِطْنَا حسابَ الخراجِ ... فقلتُ: من الضَّرْطِ جاءَ الغلطْ

[المتقارب]

فولِع به الصبيان، فكان كلّما مرَّ قالوا: «من الضرْط جاء الغَلَط»، فما زالوا يقولون ذلك حتّى هرب منها من غير عَزْل[٣].

* * *

وكان أبو الأسود الدُّؤلىّ بخيلًا، وهو القائل لبنيه: لا تجاودوا الله، فإنه أجودُ وأمجَد، ولو شاء أن يوسِّع على الناس كلِّهمْ حتى لا يكون فقير لفعل.

وسمع رجلًا يقول: من يعشّى الجائع؟ فعشّاه ثم ذهب ليخرج، فقال: هيهات! تخرج فتؤذى غيرى من المسلمين كما آذيتَنى! ووضع رجلَه فى الأدهم حتى أصبح[٤].

قال: وكان رجل يأتى ابنَ المقفّع فيلحّ عليه ويسأله الغدَاء عنده، فيقول: لعلّك تظن أنّى أتكلّف

---

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٨٨ - ٩٠ ومحاضرة الأبرار ١: ٢٥٨.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٠ ومحاضرة الأبرار: ٢٥٨.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٠: ٩١.
(٤) المحاسن والأضداد ٩٠.

لك شيئا، والله لا أقدّم إليك إلّا ما عندى. فلما أتاه إذا ليس فى بيته إلّا كِسَر يابسةٌ، وملحٌ جَريشٌ، وجاء سائل إلى الباب فقال: وسّع الله عليك! فلم يذهب. فقال: والله لئن خرجتُ إليك لأدقّنّ ساقك. فقال ابن المقفع للسائل. لو عرفت مِن صدق وعيده ما أعرف من صدق وَعْدِه لم تردد[١] كلمة، ولم تُقِم طَرفةً ببابه[٢].

* * *

المدائنى عن خالد كيلويه، قال: كنت نجّارًا حاذقًا، فذُهِب بى إلى المنصور، فقال: افتح لى بابًا أنظر منه إلى المسجد وعجّل الفراغ منه. قال: ففتحتُ الباب، وعلّقتُ عليه بابًا، وجصّصته وفرغتُ منه قبل وقت الصلاة، فلمّا نودى بالصلاة جاء فنظر إليه، فأعجبه عملى، وقال لى: أحسنتَ بارك الله عليك! وأمر لى بدرهمين.

* * *

قال: وقال المنصور للمسيّب بن زهير: أحضِرْ لى بَنّاءً حاذقًا الساعةَ، فأحضَرَه، فأدخله إلى بعض مجالسه وقال له: ابن لى بإزائه طاقًا يكون شبيهًا بالبيت، فلم يزل يُوقَى بالجصّ والآجُرِّ حتى بناه وجوّده ونظر إليه واستحسنه، فقال للمسيّب: أعطِه أجْرَه، فأعطاه خمسة دراهم، فاستكثرها وقال: لا أرضَى بذلك، فلم يزل حتّى نَقَصَه درهمًا، ففرح بذلك وابتهج كأنه أصاب مالًا.

* * *

وحكى عن المنصور أنه لُدِغ، فدعا مولًى له - يقال له: أسلَم - رَقّاءً، فأمره أن يَرْقِيَه، فرقاه، فبرئ. فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فَثَقَبه وصيّره فى عنقه، وجعل يقول: رقَيت مولاىَ فبرئ، فأمر لى برغيف. فبلغ المنصور ذلك فقال: لم آمرك أن تشنّع علىّ، قال: لم أشنّع إنما أخبرتُ بما أمرتَ. فأمر أن يُصفَع ثلاثة أيام فى كلّ يوم ثلاثَ صَفَعات.

* * *

وعن الأصمعىّ؛ قال: دخل أبو بكر الهجرىّ ذاتَ يوم على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين. انتقَض علىَّ فمِى، وأنتم أهل بيت بركة! فلو أذِنْتَ لى لقبّلتُ رأسَك لعلّ الله يَشُدّ فمِى! فقال المنصور: اخترْ ذلك أو الجائزة، فقال: يا أمير المؤمنين، أهون علىّ عن ذهاب درهم الجائزة ألّا يبقى فى فمى حاكّة.

ومنه مكاتبات:

كتب أرسطاطاليس إلى رجلٍ فى رجل يَصِلُه بشىء، فلم يفعل، فكتب إليه: إن كنتَ أردتَ فلم تقدر فمعذور، وإن كنتَ قدرتَ فلم تُرِد، فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدِر[٣].

قيل: وكتب إبراهيم بن سيّابه إلى رجل صديق له كثير المال يستسلفه، فكتب إليه: العيال كثيرٌ،

---

(١) البيان والتبين: «لم تراده».

(٢) الخبر فى البيان والتبيين ١: ١٩٧: ١٩٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩١.

والدَّخْل قليل، والمال مكذوب، فكتبَ إليه: إن كنتَ كاذبًا فجعلك الله صادقًا؛ وإن كُنْت صادقًا فجعلك الله معذورًا[١].

* * *

قال: وكتب بعضهم يصف[٢] رجلًا: أمّا بعد، فإنك كتبتَ تسألُ عن فلان، فكأنّك همتَ أو حدّثتَ نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعلْ أمتع الله بك! فإنّ حُسن الظنّ به لا يقع فى الوَهْم إلّا بخذلان الله، وإنّ الطّمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلّا بسوء التوكّل على الله، وإنّ الرجاء لما فى يده لا ينبغى إلّا بعد اليأس من رحمة الله. إنه يرى الإقتار الّذى نهى الله عنه، هو التبذير الذى يعاقب الله عليه، والاقتصاد الذى أمر الله عزّ وجلّ به هو الإسراف الّذى يعذّب الله عزّ وجلّ عليه. وأنّ بنى إسرائيل لم يستبدلوا العَدَس بالمنّ والبَصَل بالسَّلْوى، إلّا بفضل أحلامهم، وقديم علمٍ توارثوه من آبائهم، وإنّ الصنيعة مرفوعةٌ، والصّلة موضوعة، والهمّة مكروهة، والصدقة منحوسة والتوسُّعَ ضلالة، والجودَ فُسوق، والسخاءَ من همزات الشياطين، وإنّ مواساة الرجل أخاه من الذّنوب الموبِقة، وإفضاله عليه من إحدى الكبائر.

وإنّ الله عزّ وجلّ لا يَغفِر أن يؤثِر المرءُ فى خصاصةٍ على نفسه ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. ومن آثر على نفسه فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينا؛ كأنه لم يسمع بالمعروف إلّا فى الجاهليّة الذين قطع الله أدبارهم، ونهى جلّ اسمُه عن اتباع آثارهم، وإن الرَّجفة لم تأخذ أهلَ مدْيَن إلّا لسخاء كان فيهم، وإن الريح العقيمَ أهلكتْ عادًا وثمود لتوسُّع كان فيهم. وهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإقتار، ويعدُ نفسَه العقوق، ويأمرها بالبخل، خيفة أن تمرّ به قوارعُ الدهور، وأن يصيبه ما أصاب القرون الأولى.

فأقم رحمك الله بمكانك، واصبر على عُسْرك، لعلّ الله أن يُبدلنا وإيّاك (خيرًا منه زَكاةً وأقربَ رُحمًا).

ومنه فنٌّ آخر. وصف أعرابىٌّ رجلًا فقال له: بِشْرُ مُطمع، ومَطْلٌ موئس؛ فأنت منه أبدًا بين اليأس والطمع، لا مَنْع مُريح، ولا بَذْل سريح[٣].

* * *

وقال أعرابىٌّ: أنا من فلان فى أمانىَّ تُهبط العُصم، وخُلف يذكر العُدْم، ولسْت بالحريص الّذى إذا وعده الكذوب أعلق نفسه لديه، وأتعبَ راحلتَه إليْه.

* * *

وذكر أعرابىّ رجلًا فقال: لَه مواعيد عواقبها المطل، وثمارُها الخُلْف، ومحصولها اليأس. ويقال: سرعة اليأس أحد النُّجحيْن.

(١) المحاسن والأضداد ٩٢.
(٢) المحاسن والأضداد: «وكتب آخر إلى آخر».
(٣) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

وقال بعضهم: مواعيدُ فلان مواعيد عُرْقوب، ولمع الآل، وبرقُ الخُلَّب، وأمانيُّ الكَمّون، ونار الحُباحِب، وضَيفٌ تحته راعدة[١].

* * *

ولبعض الكتّاب فصل فى هذا المعنى: أما بعد، فإن كثرة المواعيد من غير نجح، عارٌ على المطلوب، وقلّتها عند الحاجة، مكرُمةٌ من صاحبها، وقد رددتنا فى حاجتنا هذه مع كثرة مواعيدك من غير نُجْح لها؛ حتى كأنّا قد رضِينا بالتعلل بها دون النجاح، كقول الأوّل:

لا تجعلنّا ككمُّون بمزرعة ... إنْ فاتَه الماءُ أروَتْه المواعيدُ[٢]

[البسيط]

* * *

ولآخر منهم: ما رأيت مِثلَ طيّب قولك، أمرّه سوءُ فعلك، ولا مثلَ بَسطِ وَجْهك، خالفَهُ ضيقُ تنكّدك، ولا مِثل قرب مواعيدك باعَدَها فَرطُ مَطْلِكَ، ولا مثل أُنْس بديهتك، أو حش منه قبيح عواقبك، حتّى كأنّ الدهر أودعك لطيفَ الحيلة بالمكر بأهل الحِلّة، وكأنّه زيّنك فيهم بالخديعة لتُدْرِك منهم فرصةَ الهَلَكة. وقد قيل: وعد الكريم نَقْد وتعجيل، ووعدُ اللئيم مَطْلٌ وتأجيل.

* * *

وقال بعضهم: وعدتَنا مواعيدَ عُرْقوب، ومطلتَنا مَطْلَ نُعاس الكلب[٣]، وغَرَرْتَنا غرورَ السَّراب، ومَنَّيتنا أمانىّ الكَمُّون.

* * *

ولبعضهم: أما بعد، فلا تدَعْنى متعلِّقًا بوعدك، فالعذر الجميلُ، أحسنُ من المطل الطويل، فإن كنت تريد الإنعام فأنجِحْ، وإن تعذّرت الحاجةُ فأوضِح، وأعلِمْنى ذاك لأصرف وجهَ الطَّلب إلى غيرك.

* * *

وذكروا أن فتى من مُراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص، فقال له ذات يوم: ألك امرأةٌ؟ قال: لا. قال: أفتتزوّج وعلىّ المهر! فرجع إلى أمّه فأخبرها، فقالت:

إذا حدّثَتْك النفسُ أنك قادرٌ ... على ما حوَت أيدى الرجال فكذِّب

[الطويل]

فتزوّج، ثم أتى عمرَو بن العاص فاعتلّ عليه، ولم ينجزْ له وعدَه، فشكا ذلك إلى أمّه، فقالت:

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٥.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

(٣) فى اللسان: الكلب يوصف بكثرة النعاس، وفى المثل: «مسطل كنعاس الكلب».

لا تغضبنّ على امرئ فى مالِه ... وعلى كرائم مالِ نفسِكَ فاغضبِ[١]
[الكامل]

* * *

ولبعض الشعراء فى هذا المعنى:

أروحُ وأغدُو نحوَكم فى حوائجى ... فأصبح منها غدوةً كالذى أُمسِى[٢]
وقد كنت أرضى للصديق شَفاعَتى ... فقد صرتُ أرضى أن أشفّعَ فى نفسى
[الطويل]

ولأبى نُواس:

وعَدْتَنى وعْدَك حتى إذا ... أطمعْتَنى فى كنز قارُون
جِئت من اللّيلِ بغسّالةٍ ... تغسل ما قُلتَ بِصابونِ
[السريع]

وأنشد لأبى تمّام:

يحتاجُ من يَرتجى نوالَكمُ ... إلى ثلاثٍ بغير تكذيب
فكنزُ قارونَ أن يكون لهُ ... وعمرُ نوحٍ وصبرُ أيّوب
[المنسرح]

ولآخر:

إنى لأعجبُ من قَولٍ غُررتُ بهِ ... حُلوٍ يَلذّ إليهِ السمعُ والبصرُ[٣]
لو تَسمعُ العُصْمُ فى صُمّ الجبالِ بهِ ... ظلّتْ من الرَّاسِياتِ العُصْمُ تنحدِرُ
كالخمرِ والشهدِ يجرى فوق ظَاهِرِهِ ... وما لباطِنِه طَعمٌ ولا خَبرُ
وكالسَّرَابِ شَبيهًا بالغديرِ وإنْ ... تَبْغَ السرابَ فلا عَينٌ ولا أثَرُ
لا يَنبُتُ العُشْبَ عن بَرْق وراعِدَةٍ ... غَرّاءَ ليسَ بها سَيْلٌ ولا مطرُ
[البسيط]

* * *

ومما قيل من الشِّعر فى البخل بالطعام لبعضهم:

رأيتُ أبا عثمانَ يَبْذُلُ عِرْضَهُ ... وخبزُ أبى عثمانَ فى أكرمِ الحرزِ[٤]
يَحِنُّ إلى جاراتِهِ بعدَ شِبعِهِ ... وجاراتُهُ غَرْثى تحنّ إلى الخبزِ
[الطويل]

* * *

(١) الخبر فى المحاسن والأضداد ٩٤.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٥.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٥، ٩٦، ونسبها إلى حسان بن ثابت.
(٤) المحاسن والأضداد ٩٦.

آخر:

ما كنتُ أحسبُ أنّ الخبز فاكهةٌ حتى نَزَلْتُ على عوْفِ بن خِنزيرِ[١]
الحابسُ الرَّوْثَ فى أعفاج بغلتهِ بُخْلًا على الحَبِّ من لَقْطِ العَصافيرِ
[البسيط]

* * *

ولغيره:

نوالُكَ دونَهُ خَرْطُ القتادِ وخيرُكَ كالثريّا فى البِعادِ[١]
ترى الإصلاحَ صَومَكَ لا لِنُسْكٍ وكَسْرًا للرَّغيف من الفسادِ
أرى عمرَ الرَّغيفِ يطولُ جدًّا لَدَيكَ كأنّهُ من قومِ عادِ
[الوافر]

ولآخر:

اللّوْمُ منكَ على الطعام طِباعُ فعِيالُ بيتكَ ما حَيِيتَ جِياعُ
وإذا يَمرُّ ببابِ دارك سائلٌ هرّتْ عليه نوابحٌ وسِباعُ
وعلى رغيفِكَ حَيّةٌ مَسمومةٌ وعلى خُوانِكَ عقربٌ وشُجاعُ[٢]
[الكامل]

* * *

ولآخر:

يا تاركَ البيتِ على الضَّيْفِ وهاربًا منهُ مِنَ الخوفِ[٣]
ضَيفُكَ قد جاءَ بزادٍ لهُ فارجع فكن ضَيفًا على الضيف
إذا اشتهى الضيفُ طبيخ الشِّتا أتاهُ بالشَّهوةِ فى الصَّيفِ
وإن دنا المسكينُ من بابهِ شدَّ على المسكينِ بالسَّيفِ
[السريع]

ولآخر:

يَكتبُ بالحِبر على خُبزِهِ «والله لا يأكُلهُ الجارُ»
[السريع]

ويسأل الخادمَ من بخلهِ أىُّ رغيفٍ فيه آثارُ!
ويختمُ القِدْرَ على أهلِهِ ويَشْعَبُ العظمَ بمسمارِ

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٦.

(٢) الشجاع: الحية.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٧.

والماء فى منزلِهِ طُرْفَةٌ يشربهُ الناسُ بمقدارِ

ولآخر:

أرى ضيْفَكَ فى الدَّار وكرْبُ الموتِ يَغْشاهُ[١]
على خُبزِكَ مكتوبٌ: «سيكفيكَهُمُ الله»

[الهزج]

ولآخر:

لأبى نوحٍ رغيفٌ أبدًا فى حِجْرِ دَايَهْ[٢]
أبدًا يَمْسَحُهُ الدَّهْرِ بكُمٍّ ووقايَهْ
ولهُ كاتبُ سرٍّ خَطَّ فيهِ بعنايَهْ:
فسيَكْفيكَهُمُ الله إلى آخِرِ الآيَهْ

[مجزوء الرمل]

آخر:

الخبزُ يُبْطى حينَ يَدْعُو بهِ كأنه يَقْدَمُ منْ قافِ
ويمدَحُ الملْحَ لأصحابِهِ يقولُ: هذا ملحُ سِيرافِ
سِيّانِ أكلُ الخبز فى دارِه وقلعُ عينيْهِ بخُطّافِ

[السريع]

* * *

وقال آخر:

فتًى لا يغارُ على عِرْسِهِ ولكنْ يَغارُ على خُبزِهِ
فمنهُ يدُ الجودِ مقبوضَةٌ وكفُّ السماحةِ فى عَجْزِهِ

[المتقارب]

آخر:

يصونونَ أثوابهمْ فى التُّخوتِ وأزواجُهم يخترقْنَ السِّكَكْ[٣]
يُنَحُّونَ مَنْ رامَ رُغفانَهمْ ويُدْنونَ مَنْ رامَ حَلَّ التِّكَكْ

[المتقارب]

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٨.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٨.

ولآخر:

ولـوْ أنّ الذُّبـاب تـراه يـومًـا ... غَـدَتْ غَـرْثَى لصحفِتِـه تـرُومُ
لنـادَى فى العشيـرةِ: أدركـونى ... ألا أيْنَ القَمـاقِمُ والقـرومُ!
فيـاوَيْـلَ الـذبـاب إنَ ادْركـوهُ ... وفى الهيْجـا عـدوّهُـمُ سليـمُ

[الوافر]

ولآخر:

أمَّـا الـرغيفُ لـدَى الخُـوا ... نِ فمنْ كـريمـاتِ الحُـرَمْ[1]
مـا إنْ يُجَسّ ولا يُحَسُّ ... ولا يُـذاقُ ولا يُـشَـمّ
فتـراهُ أخْـضَـرَ يـابسًـا ... بـالى النقـوشِ مِنَ الهـرَمْ

[الكامل]

* * *

ولآخر:

أتيْنا أبا طـاهِرٍ مُفـطِرينَ ... إلى رَحْله فرَجَعْنا صِياما[2]
وجـاءَ بخبزٍ لـهُ حامِضٍ ... فَقلتُ: دَعوهُ وموتوا كِراما

[المتقارب]

* * *

وعن حذيفة بن محمد الطائىّ قال: قال الرشيد: لا أعرف لمولّدٍ أهجَى من قول أبى نُواس:

ومـا روَّحـتَنـا لـتـذُبَّ عنّـا ... ولكن خِفْتَ مَـرْزِئَهَ الـذُّبابِ[3]
شـرابُكَ كـالسّراب إذا التقينـا ... وخبـزُكَ عنـد مُنقـطَع التراب

[الوافر]

* * *

ولآخر:

خَانَ عهدى عمرُو وماخُنْتُ عَهْدَهْ ... وجفـانى ومـا تغيَّـرْتُ بعـدَهْ[4]
ليسَ لى مـا حييتُ ذنبٌ إليه ... غـير أنّى يومًـا تَغَـدَّيْتُ عنـدَهْ

[الخفيف]

* * *

---

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.
(٢) المحاسن والأضداد ٩٩.
(٣) المحاسن والأضداد ٩٩.
(٤) المحاسن والأضداد ٩٩.

الخليل بن أحمد:

كـفّـاهُ لَمْ تُخْلَقـا لـلنَّـدى ولم يـكُ بُخلُهـا بـدْعَـةْ[١]
فكفٌ عن الخـير مقبـوضَـةٌ كـما نَقَصتْ مـائـةٌ تسعَـهْ

[المتقارب]

ولآخر:

أتيتُ أبا عمرو أُرجِّى نوالهُ فزادَ أبو عمرو على حَزَنى حُزْنا[٢]
فكنتُ كباغى القَرْن أسلَم أُذْنَهُ فآب بلا أُذْنٍ ولم يستفدْ قَرْنا

[الطويل]

(١) المحاسن والأضداد ٩٩.
(٢) المحاسن والأضداد ١٠٠.